

العهد العثماني من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢٤٧

الجند أداة الظلم والتمييز

كان الشام في هذا القرن مهد القلاقل والثورات، يقع الاعتداء في الأكثر على النصارى واليهود وأهل السكينة من المسلمين. وأكثر الفوضى ناشئة من الجند الجاهل الذي تمادى في اللؤم والدناءة حتى أض كالوحوش الضارية. ويقسم هذا الجند إلى ثلاثة أقسام: الإنكشارية والقبوقولي وهما القسمان القويان، والقسم الثالث حرس الولاية الخاص وهو يتألف من المغاربة والتكارنة والترک والأرناؤد والدالاتية وغيرهم، والعداوات متأصلة بينهم. ولطالما قامت بسبب ذلك فتن، ووقعت ويلاتهما على الشعب فيهرق دمه وتنهب أمواله، وتغلق حوانيته، وتقف الأعمال، ولا سيما في الحواضر كدمشق وحلب. ولا تنفض هذه المشاكل إلا بتدخل الولاية أو أحد الأعيان، ويتكرر ذلك أبداً لأن العلة الأولى فيها لم تستأصل ما دام المجرمون لا يعاقبون والأوباش لا يحملون على حرمة الشريعة. ولذلك كانت شوارع المدن وأحيائها كثيرة الأبواب والأرتجة وتقف أيام الثورات، وساعة المخاصمات والمشاغبات، والأزقة ضيقة معوجة لتصلح لحرب المتاريس.

وأكثر رجال الجندية نفوذاً الإنكشارية لكثرتهم وشدتهم وصدقتهم للوالي. وكان زعماء الجند يلقبون بالأغاوات. ويرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي يتتمون إليها، ويرسم على أبواب المقاهي اسم الفريق الذي يختلف إليها، وليس لهم نظام خاص. والمحلات تخضع للأغا المقيم فيها وهو يخضع لزعيم الفرقة. ولم تكن تكفيهم إدارتهم التي يتناولونها من مال الخزينة لكثرة أتباعهم، فيضطرون للعمل يذهبون

إليه وهم مسلحون ليسهل عليهم الانضمام إلى فرقهم متى دعت الحاجة، ولا شأن للخاملين وأهل الفسق إلا الاجتماع في المقاهي والحانات، وإطالة أيدي الأذى على الناس يصادرون أموالهم ويفترسون نساءهم وصبيانهم، وكثيرا ما يقتلون أحد أبناء السبيل لغير سبب كأن يجربوا بنادقهم أو سيوفهم في أول من تقع أعينهم عليه.

تمادى الرعاع في قحتهم وفجورهم إلى الغاية، لضعف الحكام وقصورهم عن ردع القوي عن الضعيف، فنشأت فئة من الناس مسلمين ومسيحيين، اتكلوا في حفظ أنفسهم وأهلهم على أنفسهم وشدة بأسهم في الدفاع. وكان القوم يحترمون هؤلاء الأشداء ويخافونهم، وكان منهم من عرف بالشهامة والشمم بما يغبطون عليه ويخفف ويلات الشرور اللاحقة بالرعايا من اعتداء الجند أحيانا. وبلغ التعصب الديني أقصى شدته في هذا العصر حتى تجاوز القوم فيه حد الإفراط، يحسب المرء كل من لم يتدين بدينه ممن يجوز له قتله أو الاعتداء عليه، وابتزاز ماله وانتهاك عرضه، وانتشر هذا الروح حتى عمّ السواد الأعظم من الناس. قال مشاقة بعد إيراد ما لخصناه: وكان فريق من العلماء وأهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعا لقواعد الدين الشريفة ولكنهم لم يوفقوا لردع الرعاع في زمن عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على القوم.

من أجل هذا ساغ لنا أن نستنتج أن الشام كان أهلها وحكومتها بين ظالم ومظلوم، يشتد الوالي في إعنات الرعية لسلب أموالهم ويرسل إلى العاصمة بالمقرر عليه، وكثيرا ما يشاكسونه فلا يدفعون المفروض عليهم، أو يتقضون عليه بإيعاز بعض أهل النفوذ وقد يكون الحق معه، والرعايا عرضة لاعتداء الجند وأغواتهم والأعيان وأتباعهم، تساوى في النظام المدني والقروي، وربما كان المدني أكثر تعرضا للمهالك لقربه من هذه العوامل التي أخذت على نفسها تمثيل التخريب في مسارح الجهل على

ضروبه وأشكاله. ظلمات بعضها فوق بعض، وسلاسل مفرغة من المصائب لا يدري أين طرفاها. وليت شعري ما يرجى من عناية دولة بأمته وهي تعطي الوزير ثلاثة أطواخ والأطواخ أذنان خيل فالذنب معلق من أسفله في رأس عصا وطولها نحو ثلاثة أذرع وشعره مسدول عليها، فإذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم إلى محل نزوله فيستعدون لاستقباله وتهيئته ما يلزمه من المآكل والعلف للدواب بلا ثمن. وأما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير في السفر. ومعنى الأطواخ أن الدولة تحكم البلاد بأذنان خيلها قاله مشاققة ونحن نقول: إن الدولة التي يبلغ من غرورها هذا المبلغ لا تنجح في الحكم بحال.

قال جودت في حوادث سنة ألف ومائتين: إن وظيفة جابي المال في حلب كانت منذ أربعين سنة مطمح أنظار الموظفين في الدولة لأنها تأتيهم بثروات إذا جاءوا بها إلى الأستانة ينالون بواسطتها رتبة الوزارة ورتبة ميرميران، وممن كان منه ذلك أحمد باشا فإنه أخذ العلم والطوخ واشتهر شهرة عظيمة، وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشتري بالمزاد، وكثيرا ما كانت الدولة ترسل بمفتشين يشاركون المرتكبين من هؤلاء الجباة، وكثيرون ممن يتولون هذه الوظائف يرحلون بالأموال ينفقونها في شهواتهم حتى يهلكوا فقرا وقهرا، ولذلك كانت أموال الدولة تبتد ويسرف فيها.

حوادث الجزائر وفتن الإنكشارية وغيرها

بدأ القرن وأعظم وزير مسموع الكلمة في الأستانة قوي الشكيمة في ظلم الرعايا بالشام، أحمد باشا الجزائر، تولى دمشق بعد ولاية عكا، وذهب أميرا مع الحج فرجع الدمشقيون الشكاوى عليه إلى دار الملك فعزل وذهب إلى الأستانة فعينته الدولة وزيرا على صيدا، وأقام في عكا

وحصنها وضبط أملاك بيت شهاب في بيروت ورفع أيديهم عن حكمها، وأنشأ للثغر أرتجة وسورا فُسر المسلمون بذلك، ونُصب على دمشق إبراهيم دالاتي باشا سنة إحدى ومائتين وألف وكان جسورا مهيبا فحدث بينه وبين الأهالي اختلاف وتعصبوا عليه وحدثت فتنة، فأغلق أحمد آغا الزعفرنجي شيخ الإنكشارية القلعة وقتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل وأراد لأن يضرب الوزير، فخرج هذا إلى حمص وحماة وجمع عسكرا كثيرا، وأوعزت الدولة إلى الجزائر وإلى الأمير يوسف الشهابي أن يعاوناه بعسكرهما ففعلا، وعاد الوالي إلى دمشق فارتاع أهلها وأرسلوا النساء إلى الجامع الأموي فكلمه أعيان المدينة فاشتراط عليهم أن يلتزم الرحمة إذا خرج الزعفرنجي من القلعة وتسلمها رجاله، ودخل البلد وقتل بعض الأردباء قيل: إنهم مائة وخمسون رجلا من جماعة القلعة، وكان جاء الوالي في عسكره إلى باب الله واجتمع العسكران ووقع قتال فهلك فيه من الفريقين خلق. وملك الوالي الميدان، واستمر ذلك مدة والعسكر محيطة بالقلعة حتى سُلمت. وأقام هذا الوالي أربع سنين في دمشق، وذهب أمير القلعة إلى أمير عرب الموالي فازا منه فأوعز إلى متسلم حماة أن يقتص من عربهم لفسادهم في تلك الأرجاء، فساق عليهم من حلب وحماة جيشا قتل منهم نحو ألف إنسان وانهزم الباقون. وكان عرب الموالي ثاروا هذه السنة في ضواحي حمص وحماة فنهبوا القرى وفتكوا بأغوات الدنادشة حكام المدينتين منهم وقتلوا كلا من شيخ الكلبيين وشيخ النصيرية وعاثوا في تلك الجهات وفتكوا بأعيانها. وفي سنة ١٢٠١ دخل عثمان باشا إلى إنطاكية ونزل عسكره على الحریم وفعل فيها أفعالا قبيحة، وأتى إدلب وصادرها وخرب جميع القرى التي مر عليها، وخرب الراموسة، واشتبك القتال بينه وبين أهل الشيخ سعيد عدة أيام فقتل من عسكره بالطاعون والسلاح عدد كبير، ونهب قرى في تلك الأرجاء، هذا والطاعون في حلب وأرجائها يفتك فتكا ذريعا. وخربت القرى وهلك

الفقراء في فتنة الأمير جهجاه الحرفوش ١٢٠٢ وكان قوي على إبراهيم باشا والي دمشق، وسرت شرارة فتنة الزعفرنجي إلى أهل دمشق حتى طلب الوالي عسكرا من جبلي نابلس والشوف ودقت طبول الوالي ١٢٠٣ من دومة وفرق العساكر ثلاث فرق فدخل عمر آغا من الزفتية، وابنه على صفّ الجوز، والوزير على السلطاني، وأحرقوا القببات وحرارة التركمان، وجرت الدماء من الصباح إلى العصر حتى أطاع أهل دمشق السلطان عبد الحميد الأول، وخرب الوالي القلعة وأهلك متوليها بمدافعه شرذمة قليلة من عسكر الوزير، وبقيت الحرب بين الفريقين ستة أيام بلياليها.

وفي أيام إبراهيم باشا الكردي ١٢٠٣ انتشبت الحرب في وادي أبي عباد فوق كامد اللوز في البقاع بين عسكر الجزائر وعسكر الشهابيين أمراء لبنان ووادي التيم انكسر فيها عسكر الجزائر كسرة عظيمة. ووقع بين عسكر الجزائر والهواراة والدروز في جب جينين قتال انكسر فيه عسكر الأمير وقتل منه مقتلة عظيمة، ثم جمع الأمير يوسف عسكر لبنان وأرسلهم مع سليمان باشا والهواراة إلى عين دارة، فالتقوا بعسكر الجزائر في قب إلياس فانكسر أيضا عسكر الأمير يوسف وحدثت عدة وقائع بين عسكر الأمير في جزين وعسكر الجزائر في جباع كسر فيها عسكر الأمير يوسف. وكان عسكر الزعفرنجي يعيث خلال ذلك في مرج الغوطة، فيهلك الفلاحين ولا إهلاك الأوبئة ويرعى رجاله الزروع ولا أكل الجراد.

عهد سليم الثالث وفتن وكوائن

هلك السلطان عبد الحميد الأول سنة ١٢٠٣ وخلفه السلطان سليم الثالث وكانت أيامه كلها غوائل وفتن: استقلت فيها القريم وأصبحت روسيا بما أخذته من أملاك الدولة على البحر الأسود دولة بحرية مهمة، وقبل بمعاهدة كوجك قينارجه ١١٨٨ مع روسيا وبها انحط مقام الدولة،

وحارب روسيا مرتين. وقال مترجموه من الترك: إنه كان عادلا حلما تحبه الرعية. ويقول من عاصره: إن عبد الحميد الأول كان أحرق للغاية وإنه كان جاهلا وليس فيه من جودة الرأي والحزم والمضاء شيء، ولم يستطع أن يستفيد من الثورة السياسية والدينية التي نشبت في القافقاس، ولم يحسن الانتفاع من أسباب النجاح التي كانت متوقعة من بحريته وجيشه.

وفي سنة ١٢٠٤ وقعت فتنة بين الأمير قاسم الحرفوش وابن عمه جهجاه في سهل أبلح بالبقاع، فدحر قاسم عسكر الأمير بشير الشهابي فشق عليه فأرسل نجدة أخرى للأمير قاسم، فلما علم ذلك جهجاه هرب سكان بعلبك وأتلف ما فيها ولم ينالوا من جهجاه، ثم استصرخ الجزائر فأمر بأن يمد بجيش فأرسل معه عسكر المغاربة والدولة ومشايخ الدروز فانتشبت الحرب بينهم وبين جهجاه فاندحروا وقلق الناس، ورحل كثير من السكان من تلك الأرجاء، ثم تغلب جهجاه على قاسم. وفي السنة التالية وقعت وقعة بين جهجاه وحاكم بعلبك إسماعيل فانهزم هذا وقتل من رجاله نحو مائتي رجل ولم يقتل من رجال جهجاه أحد. وفي سنة ١٢٠٥ أحرقت عساكر الدولة وقيل عسكر الأمير بشير حاصبيا وأكثر القرى التي حولها.

مظالم الجزائر واختلال الإدارة

تولى أحمد باشا الجزائر دمشق للمرة الثانية سنة ١٢٠٥ وظل مقيما في عكا وأرسل متسلمين منهم أرفه أميني وكان كما قال مشاقة ظالما قاسيا يشبه أستاذه في إنشاء المظالم والحوادث الصعبة على المسلمين والنصارى واليهود. وكان الجزائر مغتاظا من أهل دمشق لعرضهم على الدولة مساوئه مما أدى إلى تنحيته عن عمله، فأراد الانتقام من الساعين

به هذه المرة. وبالحقيقة أن مدة حكم الجزار في دمشق وهي خمس سنين لم يرتح فيها الناس شهرا واحدا من طلب الأموال ظلما وطرح المعاملة المتصل التي حدثت بها خسائر عظيمة. وطرح بضائع متنوعة، ينهبها من جهات ويطرحها بأسعار زائدة على أخرى، وليس هناك صغير ولا كبير إلا ويناله الظلم والقهر، ونزح كثير من السكان وتركوا أوطانهم وعيالهم. سلسلة من المظالم لا حد لها. وكان كل سنة يقتل في قلعة دمشق بدون تحقيق أناسا وقد قتل في إحدى السنين مائة وستين رجلا خنقا وذلك في ثاني سنة من ولايته. وفي السنة الثالثة قتل نحو ستين وكان كلما جاء دمشق مرة في السنة وهو ذاهب ليحج بالناس أو آيب منه يعمل هذه الأعمال للإرهاب ولم يقف أمر المظالم عند حد أوامر الجزار المجنونة، بل كانت الفتن في جهات أخرى من الشام على عاداتها في القرون الماضية، من ذلك أنه جرت سنة ١٢٠٦ عدة وقائع كانت سجالات بين الجبل وعسكر الدولة الذين كانوا مع الأمير بشير، وأحرقت عسكر الدولة غريفة وبست نساء وأولادا. واشتد الخصام بين بشير قاسم وحيدر ملحم الشهابيين على الإمارة في لبنان، وكان بشير تعهد للجزار بخمسة آلاف كيس على مثل ما تعهد به يوسف، فأخذ يصادر كل من مالا الأمير يوسف، ومال الناس إلى الأمير حيدر للتخلص من الضرائب التي سامهم الأمير بشير دفعها، وسادت الفتن في اللبنانيين الغربي والشرقي، وهاجم والي دمشق بعلبك للانتقام من الأمير جهجاه لأنه لم يخلد إلى السكنينة، وقتل عشرات من الناس في بعلبك وسغبين وقتل من المعسكر أكثر من ذلك.

وهجمت أهالي حلب على بطل آغا نوري ومحمد آغا وعلى عسكره وحصل بينهما مناوشة أدت إلى انهزامه خارج حلب، وتوجه إلى عينتاب وحاصرها خمسة أشهر إلى أن قتل وحمل رأسه أربعة وعشرين من

العصاة إلى الأستانة. قال جردت: وكان هؤلاء الخونة يقتربون إلى رجال الأستانة بالأمور الدنيئة فينصبونهم حكاما في بعض المقاطعات فيفسدون في الأرض ويتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان وتقاوم الحكومة ولا تبعة في ذلك إلا على رجال الدولة.

وفي سنة ١٢٠٦ هـ ١٧٩١ م أخرج الجزائر الفرنج من بيروت وبنى السور بحجارة أبنية الشهائية التي دكها ودك كنائسهم وجعلها إسطبلات. وفي هذه السنة قتل رجل من أهل بيروت خارج البلد فأغلقوا الأبواب وقبضوا على كل من وجدوه من أهل الجبل وكانوا نحو ستين رجلا فقتلوهم جميعا. وحدثني الثقة من أهل بيروت عن أبيه عن جده أن حكام بيروت المسيحيين اشتدت مظالمهم وعتوهم على المسلمين فكان الأمير يمر في شهر رمضان في المدينة يحملون أمامه الغليون للتدخين فيتنصب المسلمون على الأقدام يحيونه فلا يتنازل أن يجيهم بل يقول الخادم من ورائه: سلّم الأمير. فضاقت الحال بالمسلمين فشكوا أمرهم إلى قائد الأسطول العثماني وكان يأتي كل سنة ليحمل الأموال المقررة فقال لهم: الخطب سهل وهو أن تغلقوا أبواب المدينة متى رأيتمونا أفلعنا بسفننا وتذبخوا النصارى وبذلك ترتاحون منهم ففعل غوغاء المسلمين وقتل بهذا التدبير الجائر كثير من الأبرياء، وبذلك تبين أن الدولة لم تكن تهتم إلا لجبايتها، فإذا استوفتها فسواء لديها تقاتل رعاياها أم تصالحوها، والغالب أنها تحبهم أن يكونوا على خصام أبدا حتى يخلو لها الجو، وقاعدة فرق تسد من أهم قواعد حكمها.

وفي سنة ١٢٠٧ هـ وهب الشهابيون الهرمل للأمر جهجاه الحرفوش فلم يدعن له سكانها فحاربهم وقتل منهم نحو أربعين رجلا وحرق البلدة وفي سنة ١٢٠٨ قامت الفتن بين الأشراف والإنكشارية في حلب دامت عشرين يوما قتل فيها بعض أهل اليسار والشرف ثم انكسر الأشراف

وحصرهم الإنكشارية في جامع الأطروش وجرى من القبائح ألوان وأشكال.

وفي سنة ١٢٠٩ صدر أمر الجزار بمصادرة بعض صيارف دمشق من الإسرائيليين وقتل بعضهم وأدخل الرعب على أبناء نحلتهم، ونال مثل ذلك بعض أغنياء الأهالي على اختلاف مذاهبهم، وبدأ القتل والصلب وقطع الأنوف وحبس خلق وجرم الأبرياء وهام الناس على وجوههم، وفي هذه السنة غزا عسكر دمشق بعلبك فهرب الأمير جهجاه إلى رأس بعلبك فأحرق بعض بيوتها وكان رجال الدولة يحاذرون من شيء يقع على الشام بعد أن اعتصمهم الظاهر عمر بروسيا فقد ذكر شاني زاده أن والي صيدا عبد الله باشا كتب إلى الدولة بأن كنيستي عكا والناصرية وقلعة حيفا كلها مستحكمة البناء لا تخلو من محذور فاستفتى السلطان فأفتى بأن تهدم الكنيسة القديمة والجديدة معا لثبوت مضرتها ونفذ الحكم. وكثيرا ما كان الولاية في العهد العثماني يوجسون خيفة من الديارات والبيع إذا كانت مستحكمة البناء فقد أخرج السلطان سليمان النصارى من ديرهم في سفح جبل بالقرب من قرية البعنة في صنفد وكان قديما يعرف بدير الخضر وأمر أحمد بن أسد البقاعي من الصوفية بالإقامة فيه مع أولاده. وفي سنة ١٢١٠ تولى دمشق عبد الله باشا العظم والقطر في حالة مزعجة وقد دام في ولايته هذه ثلاث سنين وبقي الجزار في عكا وفي هذه السنة وقع القتال بين عسكر أولاد الأمير يوسف في جبيل وبين الذين كانوا في قلعتها من عسكر الأمير بشير وكسروهم. وفي سنة ١٢١١ أرسل عبد الله باشا العظم عسكرا إلى البقاع فأرسل الأمير بشير والجزار والي عكا عسكرا فالتقاهم الجزار، ووقع القتال في مندرية من قرى البقاع، فانكسر عسكر دمشق كسرة عظيمة وقتل منه جماعة. ولم يزل عسكر لبنان والهوراة مجدا في آثارهم إلى وادي المجدل وغنموا خيلهم وسلاحهم

وزهب بعض اللبنانيين وأحرقوا البترونة قرب الزبداني. وفي سنة ١٢١٢ توجه والي دمشق إلى التفطيش كالعادة فلقى الطريق ممسوكة منافذها من عسكر الجزائر فساءت حال رجاله ثم توجه إلى جنين فطمع الأهلون فيه ولم يعطوه مال الدورة، فألحق به الجزائر جنده قاصدا قهره وعسكره. فركب وركب العسكر وتوجه نحو عسكر الجزائر فدارت بين الفريقين حرب انتصر فيها والي دمشق على الجزائر، وقتل الأول من عسكر الثاني خلقا، ورجع لم يعترضه أحد وقد جمع الأموال الأميرية برمتها. وفيها قامت الإنكشارية على أعيان حلب وقتلوا كثيرا منهم حتى كانوا يقتلون السيد وهو يصلي في المحراب، فعرض الحال على الدولة فجاء شريف باشا واليا على حلب فمنعته الإنكشارية من دخولها، فتعهد بأن يكون مسعفا لهم فدخل وأتته الأشراف فقوي بأسهم على الإنكشارية وبعد ذلك أرسل إلى الإنكشارية سرا أن يثوروا بالسادات فكبسوهم ليلا وقتلوا منهم مائتين وخمسين نفسا وأخذ منهم شريف باشا خمسمائة ألف قرش وقدمها للدولة، وقويت شوكة الإنكشارية في حلب.

وفي سنة ١٢١٣ ضرب الجند الدالاتية جميع قرى دمشق وأكلوا مغلها وحرقوا دوابها وصار منهم قتل وسلب. قال ابن آبيق: وقال أيضا في حوادث هذه السنة: إنه كثرت الفتن وانحل الحكم حتى بقي إطلاق البارود من القلعة سبعة أيام. وانتشرت الفوضى في الأحياء والبلاد لا حكم فيها لحاكم ولا متسلم، وأفندية البلد دمشق مسجونون عند الباشا في المخيم وبقي ذلك حتى رحل الباشا، وبقي عسكره يومين وليلتين نهبوا في خلالها ما في القرى من مأكول ومنظور وعزم غالب أهلها على الرحيل لما أوقع فيهم الجند من الضرر.

محاولة نابوليون فتح الشام واستيلاؤه على غزة ويافا

بينما كانت الفتن الأهلية بين العمال على المال، والشام قد ضعفت فيها كل قوة، والدولة كلما رأت عاملا قويا تكتفي بأن تضع في جواره عاملا آخر تملي له من قوتها حتى يظل في خصام مع جاره، والضعف في الإدارة ظاهر كل الظهور، والناس من الجزائر في قسم عظيم من ديار الشام في أمر مريب، وهي مفتحة الأبواب خالية من أسباب الدفاع إلا ما كان من أسوار أمهات مدنها أتى نابوليون بونابرت مصر ١٢١٣ وفتحها ولما شعر باجتماع الجيوش لمحاربتة وأنه إن لم يفاجئ الدولة العلية في الشام قبل أن تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الأمور وخيمة عليه وأن من يحتل مصر لا يكون آمنا عليها إلا إذا احتل القطر الشامي فهذه الدواعي قام من مصر ومعه ثلاثة عشر ألف مقاتل قاصدا الشام من طريق العريش.

ولما بلغ أحمد باشا الجزائر قدوم الجيش الفرنسي من مصر إلى عكا أسرع -على رواية نقولا الترك- بتدبير ما يحتاج إليه في الحصار، وأرسل إلى يافا العسكر وحصنها بالمدافع والقنابر، وامتد إلى مدينة غزة بعساكره وعشائره ووصلت جيوشه إلى قلعة العريش. وأقاموا فيها وتنبهت الغز للجهاد. وفي شهر شعبان سنة ١٢١٣ خرجت العساكر الفرنسية إلى مدينة بليس والصالحية وكتب إلى الجنرال كليبر أن يتوجه من دمياط في البر على طريق قُطية. ولما سیر بونابرت العساكر أحضر علماء الدين وقال لهم: إن الغز المماليك الهاريين مني قد التجثوا إلى أحمد باشا الجزائر فجمع لهم العساكر وحضر إلى العريش وعزموا على الحضور إلى الديار المصرية فلذلك أخذتني الغيرة وعزمت أن أسير إليهم بالعساكر وأن

أخرجهم من قلعة العريش، ثم جاء الفرنسيون إلى هذه القلعة وكان فيها ألف وخمسمائة مقاتل فحاصرها ثمانية أيام، ولما فرغت مئونتهم وبارودهم أرسلوا يطلبون الأمان، وأن يخرجوا من القلعة بغير سلاح، وبعد ذلك حضر قاسم بك المسكوبي في عسكر ومهمات فبلغ بونابرت وصوله وربطوا عليه الطريق وكبسوه ليلا وذبحوا عساكره ولم يسلم منهم إلا القليل. وعندئذ أمر الجنرال دو كوا قائد مصر ووكيل بونابرت التجار أن تسير بالقوافل إلى الشام ليتفجع بالمكاسب أصحاب التجارة ويتفجع سكان الشام ببضائع مصر حسب العادة السابقة. وسار أمير الجيوش بالعساكر من قلعة العريش إلى خان يونس واستخلص غزة من الغز عساكر الجزائر فوجد في غزة حواصل ذخيرة من بقسماط وشعير وأربعمائة قنطار بارود واثنى عشر مدفعا ومستودعا كبيرا من الخيام والقنابر. ولما بلغ يافا بنى المتاريس أمامها وأرسل يطلب إلى حاميتها التسليم وكانت نحو ثمانية آلاف فأبت وقتلت الرسول فأدار عليها المدافع وقوي الصدام فقتل من العسكر ما ينيف على خمسة آلاف ومن أهالي البلد ألفان وهجم الفرنسيون على المراكب التي في الميناء وأخذوا منها بضاعة ثمينة. ومن الغد أطلق أمير الجيوش الأسارى وسرح الشاميين والمصريين وأمر بقتل الهوارة والأرناؤد جميعا لأن بعضهم كان في قلعة العريش وحين أطلقهم أمرهم أن يذهبوا إلى بيوتهم فأتوا يافا وحاصروا بها فقتلهم واستبقى بعض الأغوات الكبار. وجد الفرنسيون في قلعة يافا ثمانين مدفعا وغنموا غنائم كثيرة من المراكب وغيرها.

وقائع نابليون على عكا وفي مرج ابن عامر

وسار بونابرت بالعسكر قاصدا مدينة عكا على طريق الجبال، ولما وصلوا إلى أرض قاقون كانت عساكر الجزائر والنابلسيون في الوادي، وحينما بلغهم قدوم الفرنسيون أخرجوا منهم من فم الوادي خمسمائة

مقاتل ويدروا يرمحون تجاه العسكر وكان قصدهم أن يجروهم إلى ذلك الوادي، فلما علم أمير الجيوش مقصدهم قسم عساكره أثلاثا ونشبت الحرب فقتل من عسكر المسلمين وولى الباقون منهزمين، ومن الغد سار عسكر الفرنسيين إلى وادي لاملح وكان بلغ الجزائر اقترابهم من تلك الديار فأرسل إلى حيفا فأحضر الذخائر الحربية والعسكر، وعندما وصل الفرنسيون إلى حيفا خرج أهاليها لمقابلتهم وسلموا أمير الجيوش مفاتيح البلد والقلعة، ودخل الفرنسيون إلى حيفا فوجدوا بها قاربا صغيرا فيه جماعة من مراكب الإنكليز فأخذوهم أسرى، وبعد ذلك انتقل أمير الجيوش بالعساكر إلى مدينة عكا ونصبوا المضارب والخيام في محل يقال له أبو عتبة، وبنوا المتاريس الحصينة ووضعوا فوقها المدافع وسار الجنرال كليبر والجنرال منو إلى الناصرة ونصب حاكم فرنسي على شفا عمرو وابتدأت الحرب على عكا خامس يوم من شوال سنة ١٢١٣ ودامت أربعاً وعشرين ساعة والجيش الفرنسي يضرب المدافع والقنابر، والمراكب العثمانية والإنكليزية تطلق المدافع من البحر حتى خيل للناظرين والسامعين أن مدينة عكا لم يبق فيها حجر على حجر، وهمم الجزائر أن يخرج فظمنه الإنكليز وقالوا له: إننا أسرنا في عرض البحر ثلاثة مراكب مشحونة ذخيرة فضعف أمرهم، ثم أسر الفرنسيون مركبين كانا قادمين من الأستانة فيهما ذخائر ومدافع وستة وثلاثون ألف دينار مرسله للجزائر فسرى على الفرنسيين، وحضر إلى أمير الجيوش قرب عكا الشيخ عباس بن ظاهر العمر فرحب به وأعطاه السلاح والكسوة وعشرة أكياس وكتب له أن يكون متوليا على مقاطعة أبيه. وحضر أيضا مشايخ بني متوال فوسد إليهم حكم إقليمهم وساروا من عند أمير الجيوش إلى صور وقدموا له الذخائر وتسلموا القلعة التي كانت لأبائهم.

وكان قد اجتمع من دمشق جند من المغاربة والهوراة والعربان والغز بلغوا ثلاثين ألف مقاتل بين فارس وراجل وانتهوا إلى مرج ابن عامر فبلغ كليبر خبرهم فسار إليهم في ألف وخمسمائة مقاتل، وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع انهزموا أمامهم مكيدة لهم، ولم يزل الفرنسيون في أثرهم حتى وصلوا إلى أطراف المرج ومن هناك أحاطوا بالفرنسيين من كل جانب، ولما رأهم القائد كليبر قد أحاطوا بالعسكر قسم رجاله أربعة أقسام مع كل قسمة منهم مدفع. شاهد أهالي الناصرة كثرة جيوش دمشق وأن الفرنسيين إلى قلة فبادروا وأخبروا أمير الجيوش فأحضر حالا القائد لترك وأمره بتحضير ثلاثة آلاف عسكري وأخذوا معهم أربعة مدافع، وأمر الجنرال بونابرت أن يسيروا على وادي عبلين وبعد ثلاث ساعات من سيرهم ركب أمير الجيوش وسار وراءهم طالبا أثرهم، ووصل في منتصف الليل بعسكره إلى بئر البدوية وعند الصباح سار بالعسكر إلى أن نفذ إلى مرج ابن عامر وصعد إلى تل عال فكشف أرض المرج ونظر إلى الجنرال كليبر في وسط البيداء وعساكر المسلمين محيطة به والهجوم من كل ناحية وليس لهم عليه سلطان، ثم نشاهد جبلا بعيدا وعليه المضارب والخيام وكان هذا جيش الغز، فنزل أمير الجيوش وعزل خمسمائة مقاتل، وأمرهم أن يقصدوا الجبل ويكبسوا الجيش وتوجه قسم منه حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم وأحاطوا بهم، ولما وصل أمير الجيوش إليهم ضرب مدفعا واحدا ثم ضرب القسم الثاني ثم الثالث وحينما سمعت العساكر المحاربة المدافع ورأوا قدوم النجدة وعلموا أنهم صاروا في وسطهم ولوا منهزمين، ولما أصبح الصباح أرسل خمسمائة جندي إلى جنين وأمرهم أن ينهبوها ويحرقوها وأخرب قرى جبل نابلس لأنهم لم يطلبوا منه الأمان.

ولما بلغ أمير الجيوش قدوم عسكر دمشق إلى صفد أمر الجنرال مُرات أن يسير بخمسمائة راكب فرحل بعسكر دمشق إلى جسر بنات يعقوب، وعلم الجنرال منو وهو في الناصرة أن في مدينة طبرية عسكر الجزائر فنشب القتال بينهم، فانكسر عسكر الجزائر وانهزم بعد أن قتل منه مائتا جندي، وظهر الطاعون في عسكر فرنسا فمات منهم خلق. وكانت الحروب قائمة على مدينة عكا الليل والنهار وهم يهجمون على الأسوار والقنابل تنهال عليهم كالمطر، وقد أهلكوا من العساكر الإسلامية والإنكليزية خلقا كثيرا وهدموا أبراج عكا وأسوارها. ولما هلك بعض قواد الفرنسيين على أسوار عكا مع جملة سالحة من جندهم بدأ بونابرت يرجع إلى وطنه لأمر طرأ على مركزه هناك.

وكانت إنكلترا أهاجت ملوك الفرنج على فرنسا فاضطر الفرنسيون أن يرجعوا عن عكا بعد أن فقدوا على سورها ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي، ومات في الطاعون وعلى الطريق ما ينيف على ألف. وفي ١١ ذي الحجة أمر أمير الجيوش بالقيام بجميع المضارب والخيام وانتقل إلى مدينة حيفا وكان فيها عدة حواصل قطن للجزار فأمر بإحراقها. وسار إلى يافا فأخذ ما كان لهم من الأمتعة والمدافع الكبار ودفنوها في الرمال، وقد كانوا أخذوا من العساكر العثمانية أربعة آلاف بندقية فألقوها في البحر وأحرقوا المراكب التي كانوا غنموها من المسلمين وأخذوا من فيها أسرى وسخروهم في نقل الجرحى والمرضى من عسكر الفرنسيين يحملونهم على ألواح خشب إلى مصر.

خطينات نابليون في الشام

هذا ما رواه المؤرخ نقولا الترك في دخول نابليون جنوب الشام وخروجه منها وما وقع له من الوقائع وكانت مدة مقامه في الشام شهرين

لم تستفد منها فرنسا سوى قتل بعض أبنائها، وكذلك خسرت الشام خسارة الضعيف مع القوي. و نابليون وإن عدوه نابغة القواد في عصره أخطأ كثيرا في توسعه في فتوحه. وفتح الشام ومصر من جملة خطيئاته، ولم تريح أمته من حملتها على هذين القطرين إلا نشر مدنيتهما على أيدي من استصحبهم نابليون معه من العلماء والمهندسين والطبيين، وكانت مصر مباءة علمهم وعبقريتهم. وقد أخذ صاحب تاريخ الدولة العلية القائد بونابرت بأنه ارتكب قبل مغادرته يافا أمرا شنيعا لم يسبق في التاريخ وهو قتله الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقه في سيره. وفي تاريخ فلسطين أن جنود الجزائر في يافا يوم نابليون كانت مؤلفة من عرب وأتراك ومغاربة وأرناؤد وأكراد وجركس، فانسحبوا لما فتحها نابليون إلى بعض الحانات وأبوا التسليم قبل أن يؤمنهم على حياتهم فأجابهم القائد الفرنسي إلى طلبهم فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر. ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التي سلمت إليه أمانا وقبلهم حقنا للدماء فبهت وحرار في أمره وقال: ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم ألكم مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا؛ ومن يتولى خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين، ثم استشار ضباطه في قتلهم فخالقوه ولكنه أصر على رأيه وأمر بهم فقتلوا رميا بالرصاص في ١٠ آذار سنة ١٧٩٩ هـ.

ويقول مشاققة: إن بونابرت أمر قبل أن يغادر يافا إلى عكا بقتل الأسرى الذين وقعوا في قبضته ثلاثا: في العريش وفي غزة وفي يافا، وكان يطلق سراحهم كل مرة بعد أن يأخذ عليهم العهود أن لا يعودوا إلى قتاله، ولما أسرهم هذه المرة وعددهم يربو على ثلاثة آلاف حنق عليهم

وعلم أنهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري، فأمر جنوده بإطلاق النار عليهم ولم يواروهم التراب، وبقيت أجسامهم طعاما للطيور، وظلت رفاتهم مكشوفة مدة. اه وهذا السبب معقول وله من القوانين الحربية ما يشفع به بعض الشيء أكثر من الرواية الأولى. وانتقد مستر مان على نابوليون ذبحه حامية يافا وكانت مؤلفة من أربعة آلاف أرناؤدي ووضع السم لجنوده لدن عودته لأنهم أصيبوا بالطاعون. وفي رواية أنه وجد فيها ألفين من الأسرى الذين أطلقهم وكانوا عاهدوه في العريش ألا يحاربوه فقتلهم والحرب غشوم.

وقال مشاققة: إن بونابرت بعد أن فرق جموع الأتراك على الحدود السورية أرسل كتابا إلى الجزائر ينصح له أن يجنح معه إلى السلم فلم يتنازل الجزائر إلى إجابته، فأرسل إليه رسولا ثانيا فقتله الجزائر فحنق نابليون وتقدم برجاله البالغ عددهم آلاف مقاتل إلى غزة، وهزم من رجال الجزائر أربعة آلاف فارس، وأسفرت وقعة يافا عن قتل ثلاثة آلاف من الجنود التركية، ودخلت رجال نابليون يافا، وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سمح بها نابليون لرجالها بالتصرف والتمتع بمال المغلوب وأملاكه. وقال الشهابي: إن العساكر الفرنسية حاصرت يافا ثلاثة أيام وملكوها بالسيف، وكان عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر ألفا فما سلم منه إلا القليل، وقتل كثير من النساء والأولاد حتى جرى الدم في أسواق يافا، وأرسلت دمشق عشرين ألف جندي إلى عكا فالتقاهم ألف جندي من الفرنج وكسروها وقتلوا منها مقتلة عظيمة.

ولما جاءت الأخبار إلى دمشق بأن عسكر الجزائر وعسكر الإنكليز قتلوا من جند نابليون ثلاثة آلاف جندي زينت دمشق وضربت المدافع من قلعتها، وقد أصيبت الأقاليم التي وقعت فيها تلك الوقائع وما إليها

بالخراب، ومن أهم خرابها تسلط الجند على ضعاف الرعايا فقد نهبت العساكر التي ذهبت من دمشق لمقاتلة الفرنسيين ١٢١٣ مدينة صفد وعملوا المنكرات أثناء طريقهم. فأصبحت فلسطين هذه المرة بغوائل كانت سواحل فينيقية وأعمالها تصاب بمثلها أو أكثر منها في القرنين الماضيين. وأصبحت مثل هذه الوقائع في هذا الجزء من الشام أي في اللبنانيين الغربي والشرقي وما جاورها من الأمور العادية، وما ذلك إلا لقيام أمثال بني حمادة وبني معن وبني حرفوش وبني شهاب ممن كانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر كبار الأمراء وهم صغار بمواقعهم ونقص تربيتهم الحربية وضعف أخلاقهم وقلة معارفهم، فكانوا بمقاومتهم بعض المقاومة لعمال الدولة من الترك يخربون ديارهم، ويهلكون من أخذوا على أنفسهم حمايتهم من ضعاف السكان.

حال الشام بعد رحيل نابليون عنه

كان يظن بعد رحيل نابليون ومعاونة الإنكليز للدولة العثمانية على إخراجه من الشام، أن الدولة تبدل شيئا من أصول إدارتها وترجع عن استسلامها لعمالها الذين يجبون الجبايات ويرضونها بجزء منها ويحتفظون بالباقي لأنفسهم. ولكن الأحوال بقيت بحالها، وظن الجزائر نفسه أنه هو الذي دفع جيش نابليون عن الشام، فعاد بمثل مظالمه ويحمل على الناس مغارمه، ويتناول استبداده المسلمين والنصارى واليهود على السواء، وجنونه فنون.

ولم يكف فلسطين ما حلّ من ظلم الجزائر ثم وقائع نابليون حتى قام محمد باشا أبو المرق يسومها العسف والخسف، يجور على أهل بيت المقدس والخليل وغزة والرملة ولدّ، حتى اضطرت السادات الأشراف الأبرياء لكثرة مظالمه أن يبيعوا أولادهم كما تباع العبيد والجواري على ما

ذكر ذلك أحمد باشا الجزائر في كتاب صدر عنه سنة ١٢١٧ إلى وكيله في دمشق.

ومن أحداث هذا الدور نهب العسكر الدمشقي ١٢١٤ جميع القرى في طريقه إلى غزير في لبنان، وتفرقت عساكر الدولة في ضياع كسروان، ونهبوا كل ما وجدوه وذلك للضرب على أيدي الأمير بشير الذي كان على ما يظهر يحاول أن يأكل الخراج، ولذلك قاتله جيش الدولة ١٢١٥ مرة أخرى لما جاء إلى نواحي بعدا في لبنان وقتل من أدركه في المتن، ورجع بشير إلى عاريا وكان عسكر الدولة أحرق عدة بيوت من بعدا والحدث وسبي النساء وقتل العجائز والأولاد فاجتمع معه أربعة وخمسون رأسا من القتلى فأرسلوها إلى الجزائر ونهبوا أموالا ومواشي وأحرقوا عاريا. وذهب والي دمشق سنة ١٢١٧ إلى حماة وفتحها وبالغ في الظلم حتى فر غالب أهالي حماة عن بلدهم اتقاء شره، وتفرقوا في دمشق وحلب وطرابلس وأصبحت حماة كالقرية لقلة سكانها.

قال ابن آق بيق: وفي سنة ١٢١٧ شغلت دمشق بالظلم وإكرامية الباشا من البلاد واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وإرهاق القرى بالطروحة والإكراميات وفرض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها أثر في السابق قال: ولما خرج عبد الله باشا العظم من دمشق سنة ١٢١٨ قاصدا إلى طرابلس ليحارب أهلها، وضرب عسكره بعض القرى ونهبها وظلوا على هذا التخريب حتى بلغوا طرابلس فحاصرها وخرج أهلها هائمين على وجوههم ووقع القتال بين عسكره وعسكر المتسلم وقتل من الفريقين خلق. وكان أحمد باشا الجزائر يرسل النجيدات إلى عبد الله باشا العظم.

وقال أيضا: إن الجزار كان يطلب من الأغنياء أموالا يأخذها منهم بعد الحبس والضرب وبقي الطرح على جميع الأصناف وأغلقت الدكاكين بدمشق وبات الناس في كرب والعسكر يحيط بالبلد، والأكراد والشيخ طه الكردي وجنوده يعذبون الخلق أنواع العذاب حتى يقرؤا لهم بالأموال، والطرح على الخلق أشكال وضروب من بنّ وتنباك وألاجه وحرير وشاشات وزنانير واستصفاء بيوت وخانات وبساتين وغير ذلك، وظهر في دار ابن عقيل وكيل الجزار بدمشق طمائر ذهب قدرت بنحو خمسمائة كيس. ولم يمر يوم دون أن يقبض على أربعة أو خمسة من أرباب الوجاهة والثروة يسجنون في سجن القلعة ويعذبهم أكراد الجزار بالكماشات والحديد والعصي إلى أن يشرف المعذبون على الموت ويشتط العمال في طلب المال من المصادرين ويطوفون بهم في المدينة، فيضطرون إلى بيع جميع ما يملكون ليكفّ عنهم، ووصلت الحال بالأغنياء إلى التسول، وكان قتل النفوس على الأكثر في سبيل أخذ المال مشروعاً كان أو غير مشروع. فقد حدثت فتنة طفيفة بين ملتزم أموال بلاد بشارة، فأرسل الجزار على العصاة عسكريا قتلوا منهم ما ينيف على ثلاثمائة رجل وأسروا عدة، وأرسلوهم إلى عكا جعلوا على الأوتاد ثم أخذ الجزار أموالا جزيلة من السكان.

ومن الحوادث في أيام عبد الله باشا العظم بدمشق أن القبوقول قصدوا إثارة فتنة ١٢١٤ فأغلق آغا القلعة بابها، وحاصره الباشا فاضطر إلى التسليم بعد مدة، فقتل آغا القلعة وهمدت الفتنة، ثم سار عبد الله باشا لمحاربة مصطفى بربر متسلم طرابلس وحاصر قلعتها بشدة، وطال الأمر فالتجأ بربر إلى الجزار فسكت ولم يجبه لأنه كان يفاوض الأستانة لأخذ ولاية دمشق، وبينما الحال مشتدة على بربر وعبد الله باشا يحاصره بعسكره أرسل الجزار إلى وكيله بدمشق محمد بن عقيل ألفي جندي وأمره أن

يقبض على عبد الرحمن المرادي وحسن دفتر دار المتسلم وابن سيح متسلم حمص ويقتلهم حالا ونادوا باسم الجزائر واليا. فبلغ ذلك عبد الله باشا وعلم أن الدولة متغيرة عليه، فخاف كثيرا وهام على وجهه في البداية يختبئ عند العرب. أما بربر طرابلس فرضي عنه الجزائر وأقره متسلما على بلده، ثم لامت الدولة الجزائر على ما أتاه من قتل ابن المرادي كما يقتل العامة فتخلص الجزائر مما أتاه وألقي تبعة قتله على وكيله ابن عقيل وقطعه إربا مع أن الجزائر هو الذي أمره خطا بقتله.

مساوي أحكام الجزائر

توفي الجزائر سنة ١٢١٩ ١٨٠٤ بعد أن ضرب الأهالي ضربة لم تصب بمثلها منذ أزمان. أصله بشناق من جماعة علي بك أمير مصر هرب إلى الشام لما قتل مولاه، وأقام يختلج إلى لبنان فاطلع على أحواله وأحوال الديار التي كانت تحت حكم الظاهر عمر من أرض الجليل. ثم توجه إلى الأستانة فعين وزيرا على صيدا وحصن عكا ورفع عن بيروت حكم بيت شهاب وضبط أملاكهم. وكان أحمد البشناقي هذا جزارا سفاكا لأنه لما كان كاشف البحيرة في مصر عهد إليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من المماليك فأسرف في القتل فلقب بالجزار. ولا غرو فالدّم البشري في نظر أحمد باشا الجزائر، كدم الخرفان في نظر القصاب والجزار. هاج المماليك على الجزائر مرة يريدون قتله فيما يقال ولولا حذره الشديد لقتل، وتحصنوا في برج داخل عكا فطلبوا الأمان، ولما علم أن خيانتهم كانت بالاتفاق مع بعض سراريه غضب عليهم جميعا وخنقهم بالماء الحار. حج الجزائر مرة بالناس فلما عاد ترامى إلى سمعه اتهام مماليكه بحريمه فلم يلبث أن أرسل المماليك في حملة على لبنان وأوقد نارا كبيرة في داره، فكان خصيانه يأتونه بنسوته واحدة بعد أخرى فيقبض بنفسه على عنق الواحدة ويطحرها في النار على وجهها، ويدوس على

ظهرها ويضغط على رأسها، حتى يتم شيها في النار وتهلك فيرفعها ويحضر غيرها، وعلى هذه الصورة الشنعاء أهلك الجزار سبعا وثلاثين امرأة ولم تنج غير فتاة في الثامنة من عمرها.

كان الجزار يقتل الكبير والصغير من وزراء وأفندية وعلماء وأغوات ويرضي السلطان بالمال ويداربه فيتغاضى عنه، وكان إذا عامل أحد المفضوب عليهم بالرفق وعزف عن قتله يجذم أنفه، ثم يصلم أذنه اليمنى ثم يقطع عينه اليمنى ولو كان من خواص خدامه. وكم من بيت خربه بسلب ماله ظلما، وكم من رجل قتله بعد أن صادره، وكان لا ذمة له ولا ذمام، خدمه رجال من بيوت معروفة فلما بدا له قتلهم وصادرهم واختلق لهم ذنوبا وألقاهم في البحر. ولقد أكرمه الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان لما كان الجزار صعلوكا متشردا لأول أمره وعاونه لما أصبح واليا، فكانت النتيجة أن شنقه وألقاه ثلاثة أيام معلقا، ولطالما أخذ النوتية والركاب في مراكب كانت قادمة من مصر قبل مجيء الفرنسيين إليها، وقتل جميع من فيها من أبناء مصر أو الشام وصادر جميع ما يحملون من البضائع.

تقنن الجزار في إهراق الدماء وحكم المؤرخين عليه

وكان من عادة الجزار بعد أن يصادر المصادرين أن يقتلهم كما فعل سنة ١٢٠٥ فقبض في دمشق على أولاد عبيد وأخذ منهم ستين ألف قرش ففروا إلى حلب ثم قبض على ثلاثين من أتباعه وسجنهم في القلعة ففدوا أنفسهم بمائتين وخمسين ألف قرش ثم قتلهم ليلا، وقبض على خازن أمواله وأسبابه ونفاه إلى مصر، وقبض على مفتي عكا وإمامها وعلى رئيس مينائها فقتلهم صبورا. وظلم جميع أكابر دمشق وسلب أموالهم.

وخرج ذات يوم في عكا قبل الشمس إلى باب السراي وأمر بإغلاق أبواب المدينة وقبض على كثيرين من العمال والكتاب والأهالي فسجنهم، وكانوا مائتين وثلاثين إنسانا وقبض على النواب وسجنهم، وكان كلما تقدم إليه إنسان يكشف رأسه وينظر في وجهه فالذي يقول فيه نیشان يرجعونه إلى السجن، والذي يقول ما فيه نیشان يطلق، ثم إنه أحضر الفعلة أيضا وصنع بهم كذلك وقبض منهم جملة وأحضر التجار وأرباب الصنائع والحمالين وعلى هذا المنوال عامل الجميع فامتلات السجنون، ومن الغد أحضر المغاربة وأمر أن يخرجوا السجناء كلهم خارج البلد ويقتلوهم ففعلوا ما أمرهم به؛ قال مدون وقائعه: وكان يوما عصيبا لم تكن تسمع فيه إلا صراخ المقتولين ظلما وعويلهم وأنينهم، وبقي القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد، ثم أمر أن ينادي المنادي في شوارع عكا ليخرج أهل القتلى لدفن موتاهم، وأشار إلى أن كل امرأة ترفع صوتها تُقتل حالا، فخرج الناس ودفنوا القتلى. ثم ابتداء يرسل جنوده يقبضون على الفلاحين ومشايخ القرى وأصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله ومنهم من يصم أذنه ويجدع أنفه ويطلقهم.

ولم يذكر المؤرخون علة استرسال الجزار في قتل الناس على هذه الصورة من غير سبب ولعله أصيب بميس من الجنون أو أن جنونه أطبق هذه المرة فأزهق الأرواح، وإن امتاز في أدوار حياته بالفك والفتك. وذكر المؤرخون أن الجزار قبيل وفاته أمر أن يغرقوا من كان في سجنه في البحر فنفذ أمره. وفي التاريخ العام أن الجزار أوقد جذوة التعصب بين المسلمين في بيروت وأغراهم بقتل المواردنة حتى يضمن حكمه على بيروت. ولم يكن يُعرف فيما إذا كان الجزار خادما مخلصا للسلطان أو عاصيا وقحا. وكان كثيرا ما تجهئه رسل جاویشية من الأستانة تحمل أبيه بعض الأوامر فيجوز رأس القادم ويبعث به إلى ديوان الأستانة، وهناك

يغدق الذهب على الوزراء والخصيان ونساء الحرم السلطاني. وكثيرا ما كان يقول وهو في حال السكر للمسيو دي توليس: السلطان كالبنات يعطي نفسه لمن يعطيه أكثر، فإذا حاول أن يقاومني فأنا أردته إلى الصواب بأن أهيج عليه مصر والشام وآسيا الصغرى، وأزحف على الأستانة في جيش القابيز وأكون قادرا مثل لويس الكبير إمبراطور فرنسا.

وقد وصف كشافة الجزائر وصفا معقولا قال فيه: إنه كان داهية ذا بأس وحنكة واسعة، سلمت إليه الدولة إدارة شئون إيالتها وعولت عليه في إخضاع الشام وضمه تحت جناحها، على طريقة الغدر والخداع وإلقاء الفتن والحروب الأهلية بين الأمراء والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل أنواعا والظلم أشكالا، وشريعة الرجل منهم إرادته السخيفة، والحاكم يشق ويقتل ويشوه أخلاق الشعب، وكان الحال قيضت لهم رجلا كالجزار ينتقم منهم، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الأهلية يكرهون العدل ويعشقون الظلم، لا يرحمون ضعيفا ولا قريبا، ولم تكن معاملة الجزائر للأمير يوسف أقسى من معاملة هذا الأمير لأنسابه وإن ما لحقه من الجزار هو مما يستحقه. وقس على الأمير بقية المشايخ والأمراء الذين كانوا يستبيحون أموال الرعية وأعراضهم في سبيل أهوائهم. قال: إن الجزار ظلم ولكنه خدم الدولة والشعب، وعادت خدماته على الدولة بالنفع فأخضع القطر لشوكتها فأطاع، ورد عنها بثباته أمام نابوليون خطرا كان يهددها يوم حصار عكا، وأفاد الرعية بأن أزال عنهم ضغط المشايخ والأمراء المستبدين فكان جوره بالنسبة لجور الأمراء والمشايخ قبله أقل وطأة. ولما جاءهم وضع حدا لظلمهم وزعزع سلطتهم وأرغم أنوفهم وأطلق الفلاح من عقالهم. وعلى الجملة فإنه عمل بما يوافق عصره وينطبق على أبنائه، فموته سري عنم كان غضبه يهددهم ويوشك أن يوقع بهم. وقال:

إن الجزار على قبح أعماله حفظ المساواة بين الرعية مع تفرق مذاهبها، فيحبس علماء المسلمين وقسوس النصارى وحاخامي اليهود وعقال الدروز سوية، وهكذا في إجراء العذابات الجهنمية عليهم لا يفرق بينهم، وأكبر ما يحصى عليهم من الذنوب التوقف عن أداء الأموال التي يطلبها منهم وربما نشأ تلكؤهم من عجزهم.

وقال: إن الجزار كان يتأخر عن دفع الأموال الواجب عليه أداؤها للسلطنة ويعتذر عن الدفع بأنه محتاج إلى العساكر لإدخال لبنان في الطاعة، فستمت الدولة من تعللاته الطويلة وكتبوا له أن المدة طالت ويظهر أنك غير قادر على تمهيده، فلذلك صممت الدولة على إرسال وزير مقتدر بعساكر كافية لإخضاع لبنان لسطوتها فكان جوابها أنني بعد أيام قليلة إن شاء الله أبشركم بفتحه لأنه ظهر عليهم الضعف عن المقاومة، وقد منعنا وصول الذخائر إليهم من البقاع والسواحل وهم لا يقدرون على العيش بدونها، لأن أراضي الجبل قليلة بالنسبة لسكانه. وبعد مدة وجيزة بشر الدولة بشارة كاذبة مع الساعي فادعى أنه فتح الجبل وأنه وجد فيه من السكان النصارى مائة وعشرين ألف رجل ومن الدروز ستين ألفاً ومن الشيعة ثلاثين ألفاً ومثلهم من السنة، فأتحفته الدولة بسيف مجوهر ومدحته على همته، وأرسلت إليه بعد مدة أوراق جزية النصارى المعتادة وزادوا عليها مائة وعشرين ألف ورقة برسم نصارى لبنان، فسقط في يد الجزار واستدعى المعلم حاييم فارحي مدير خزائنه واستطلعه طلع رأيه في هذه القضية فأجابه يجب الآن دفع هذه القيمة من خزانتك لما عرضته الدولة عن فتح الجبل وعن عدد النصارى فيه. ثم ننظر في هذه الزيادة فدفع ثمن هذه الأوراق. وبعد أشهر أرسل بشارة للدولة بأن نصارى الجبل دخلوا في الإسلام. ولما دخلت السنة الثانية أرسلت الدولة للجزار أوراق جزية لبنان كالسنة الماضية فأرجع الزيادة بقوله: إن نصارى

لبنان تقدم العرض عن دخولهم في الإسلام وارتفعت عنهم الجزية شرعا. قال: وهكذا كانت أمور الدولة في ذاك العهد تجري بلا تحقيق في صحة ما يعرضه عليها مأمورها.

ولما هلك الجزائر أرسلت الدولة راغب أفندي الذي صار واليا على حلب بعد ذلك لضبط متروكاته، وكانت قوانين الدولة يومئذ تقضي بأن يؤخذ كل ما يخلفه مستخدموها من أملاك وأموال وعروض، فحررت التركة مع سندات الأموال التي كان يحررها على الأمراء والمشايخ عدا الأموال الأميرية، فحسبت هذه الديون الظالمة من حقوق الدولة، ولما رأوا أنها وافرة وأنه من المتعذر تحصيلها جعلوها مقسطة على رعايا أولئك الأمراء والمشايخ على عدة سنين، فكان لبنان يدفع المال مضاعفا، فالمال الواحد يبلغ أربعمائة كيس وكان يجبي من لبنان مال الجوالي على النصارى ومال فريضة على الدروز، فكان القسط الواجب على اللبنانيين أداؤه من مطلوبات الجزائر يبلغ مقدار ستة أموال أميرية وصار الأهالي يدفعون كل سنة مالمين. ولم يعلم ما خلف الجزائر من الأموال بعد حكم تسع وعشرين سنة ولكن الذي قاله المؤرخون: إن أحد رجاله الشيخ طه الكردي أخذ ألف كيس وأرسلت الدولة رجلين من الأستانة للبحث عن موجوده، فما رأوه شيئا مهما غير ما كان أرسله إسماعيل باشا للدولة مع القبطان باشي في أول الأمر من مال وتحف، يقال: إنها بلغت ثمانية آلاف كيس بيد أن إسماعيل باشا صرف أموالا كثيرة على العساكر والأغوات، وعلى كل فهي قليلة بالنسبة لطول عهده، والغالب أنه كان معتدلا في أخذ المال غير اعتداله في سفك دماء الرجال، أو أنه ادخر كميات من الذهب غير ما عثر عليه منها فضاغت عند وكلائه وخواصه.

قاعدة المبالغة في الثروة والفقر، والظلم والعدل، والعلم والجهل، والقبح والجمال تناولت أعمال الجزائر أيضا، ولو كان في قلبه بعض

الرحمة وعزوف عن سفك الدم الحرام إلا بما تقضي به الشريعة لعد مصلح عصره قياسا مع الصفات التي أوردتها مشاقفة. لا جرم أن التبعة في بعض أعماله تعود على عماله ورجاله، وأكثرهم من أبناء الديار.

المتعلقة على الأحكام بعد الجزار

خرج الشام بعد هلاك الجزار مقلم الأظفار، معروق العظام، بل مقطع الأوصال، سيئ الحال، وأحدث موته فراغا ففقدت به الدولة أعظم قوة تمثلها ونفس بهلاكه خناق أرباب المقاطعات المتغلبين من الأعيان، وكان في سجن الجزار في عكا رجل يقال له إسماعيل باشا أرناؤطي الأصل، وأصله من جملة عساكر الوزير الأعظم حين حضر إلى مصر لاستخلاصها من الفرنسيين. ولما قام الفرنج على المسلمين وأخرجوهم من مصر وتشتت العساكر في تلك الأقطار قصد إسماعيل باشا أحمد باشا الجزار، فدعاه إلى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا أبو المرق فقبض عليه الجزار وسجنه وعذبه، كما كان يفعل بمن يقبض عليه وبقي في سجن الجزار إلى أن هلك هذا، فخرج إسماعيل باشا من حبسه وجعل مكان الجزار فاستولى على متروكاته حتى اضطرت الدولة إلى قتاله لعصيانه في قلعة عكا وأرسلت عليه حملة ودام الحصار أربعة أشهر حتى أخذ وقتل فاستراحت الأمة من أحمد الجزار ومن خلفه.

وعصا أهل وادي التيم فأرسل عليهم إسماعيل باشا جندا كبس القرى وقتلوا زهاء مائتي قتيل وأخذوا مائتي أسير، وكبس الأمير بشير جنبلاط بعساكر الدروز بعض قرى عكا وقتل من عساكر إبراهيم باشا جماعة، وإبراهيم باشا هو إبراهيم باشا الحلبي الذي نصبته الدولة مرة ثانية على دمشق وكان واليا على حلب. وكان حدث بموت الجزار اضطراب وخلت دمشق من الأحكام، فمهد الأمور وعهدت إليه الدولة مع ولاية دمشق

بصيدا وطرابلس وأوعزت إلى الأمير بشير الشهابي حاكم الجبل أن يكون في طاعة إبراهيم باشا وعونا له على إصلاح حال صيدا والساحل، فصعد والي الجبل بالأمر لأنه كان داهية يراعي الدولة ولا يتأخر عن قضاء لباقتها، ولا سيما الخراج والعزية يؤديهما في أوقاتها.

حاولت الدولة غير مرة القبض على مصطفى بربر متسلم طرابلس وظل في منصبه يسوم الناس مظالمه، وما لبد خصمه اللدود عبد الله باشا العظم أن تولى دمشق للمرة الثالثة بعد أن كانت الدولة غضبت عليه بوشايات الجزار وشردته في البادية ولكنه دعاها إلى الرضا عنه وداواها بما تداوى به في العادة بأكياس بينه وبين الوهابيين أمور عظيمة، وكانوا قد استولوا على الحجاز وتقدموا إلى الشام فهلك غالب عسكره وانتهب الحاج.

عين سليمان باشا الكرجي من ممالك الجزائر واليا على عكا فأقام حاكما على يافا وعلى غزة محمد آغا أبو نبوت أحد ممالك الجزائر، وبقي حاكمها إلى أن طمع بالاستقلال فيها، وعندما تحقق سليمان باشا ذلك ركب عليه بالعسكر فهرب إلى مصر ثم إلى الأستانة وشفع فيه الشافعون فنال رتبة الوزارة. وسليمان باشا هو الذي أراد أن يرفع بعض المظالم عن الرعايا ويحملها على الأجانب في عكا كأن يبيع الغلات والقطن والزيت من الأجانب فقط، تبتاع الحكومة ما يفضل عن عوز الأهلين وتخزنه في مخازن لها تبيعه من التجار الأجانب القادمين في مراكبهم بالأسعار التي تريدها.

ومن الأحداث في سنة ١٢٢١ ما حدث من فتنة بين العسكر الوطنيين وجند الحرس في دمشق، فحاصرت القلعة وأغلقت المدينة كلها، ووضعت المتاريس داخل المدينة، وجرت بين العسكرين حرب المتاريس

في الأزقة والشوارع والسطوح والمآذن فغلب الوطنيون الحرس وكسروهم وهزموهم إلى مئذنة الشحم ثم ارتدوا عليهم وأخذوا طالع الفضة، ونهب الخلق تلك الجهة كلها، وراح الحرس مكسورين ثم عادوا وهزموا الوطنيين عند الشيخ عمود فنال الفريقان أحدهما من الآخر على غير طائل. ولم يقف شقاء دمشق عند حد القتال بين الجند بل أسرف الوالي كنج يوسف باشا ١٢٢٢ في ظلم الناس وأراد ستر ذنوبه فأرسل إلى الدولة ألف كيس من المال لإنعامها عليه بإمارة الحج وإيالة طرابلس مع ولاية دمشق وذهب إلى نابلس وقهر أهلها وجبى منهم أموالا عظيمة ثم ذهب إلى جبل النصيريين وقاتلهم وانتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان خيّرهم بين الدخول في مذهب أهل السنة والخروج من جبالهم فامتنعوا وحاربوا وخذلوا، وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا التسنن فعفا عنهم وتركهم في أرضهم بعد أن حاربهم شهرين ونهب قراهم، ثم رحل إلى طرابلس ليقبض على مصطفى بربر متسلمها، فتحصن هذا في القلعة فوق القتال، وكان الحصار أحد عشر شهرا وطرابلس خلال هذه المدة خالية من سكانها وقد جمعوا في الخانات سلحهم ومتاعهم وماعونهم، ثم دخل يوسف باشا البلد وأطلق عسكره الأكراد والأرناؤد وغيرهم النهب فلم يبقوا على شيء فيها وأنزل عسكره في الدور فخربوها بأخذ خشبها للدفء والوقود. وتوسط سليمان باشا والي صيدا عند الدولة فعفت عن مصطفى بربر وتسلم يوسف باشا القلعة. وكان مصطفى بربر من خدام الأمير حسن أخي الأمير بشير فتوصل بذكائه وشجاعته إلى المناصب العالية وحاز اعتبار الوزراء وخشية الرعية.

مقتل سليم الثالث ومصطفى الرابع وتولي محمود الثاني

في غضون سنة ١٢٢١ خلع سليم الثالث بيد الإنكشارية وقتل لأنه أراد أن ينفذ خطة في إصلاح الإدارة على الرغم من حروبه مع روسيا والنمسا وغيرهما من دول الغرب، وينشئ عسكريا جديدا يستعويض به عن الإنكشارية وكان هذا السلطان واسع النظر لكن الدهر خانه فلم يقدر أن يطبق إصلاحه، وكان أراد أن يخفق علم التمدن الأوربي فوق مملكته فاستدعى إليه من فرنسا ضباطا ومهندسين ورجالا من أرباب الصناعات فجاءه العدد الكثير منهم. وخلفه مصطفى الرابع فألغى جميع خطط الإصلاح، ولكنه قتل كما قتل سلفه سليم ولم يطل عهده أكثر من أربعة عشر شهرا، وخلفه محمود الثاني ١٢٢٣ متشعبا بروح إصلاح سليم الثالث، يريد إخراج الدولة من سباتها، معتقدا أنه لا سبيل إلى نجاتها إلا بإيجاد قوة لها من غير عسكر الإنكشارية الذين عراهم الانحلال منذ مائة سنة، وأصبحوا يقتلون الملوك والوزراء ويخونون الدولة في ساحات الوغى، ويعبثون بشعبهم ومؤامرتهم بكيان الدولة، ذاهبا إلى أن من جملة الأسباب في بقاء الدولة أن يقلد الفرنج في مناحيهم وعاداتهم. وهو الذي لبس الطربوش والألبسة الغربية. وأخذ يقيم الحفلات والمراقص وحفلات السماع على الطريقة الأوربية.

وفي سنة ١٢٢٣ مّر ببلاد النصيريين طيب إنكليزي فقتله الرعاع هناك، فصدرت الأوامر بالقبض على القتلة فأرسل سليمان باشا والي صيدا عسكريا بزعامة مصطفى بربر فاكتسح ديارهم وقتل سبعين رجلا من كبارهم، وحشارء وسهم تبنا وبعث بها إلى الباشا، ثم امتنع النصيرية عن أداء المال فأرسل عليهم مصطفى بربر فنكل بهم وقتل خمسة وأربعين من

رجالاتهم فأخلدوا إلى الطاعة. وكان من مقتل الطيب وسيلة إلى الغارة على ضعاف الرعايا في زمن أصبح فيه شنّ الغارات صناعة يحترفها أناس مخصوصون في خدمة متغلب من المتغلبين.

وفي سنة ١٢٢٤ قوي الاختلاف بين والي دمشق وابن الشهابي وابن جنبلط وكانا استوليا على أملاك عظيمة من الفلاحين في البقاع فلم يزرع أحد في تلك الأرجاء. وكان الوهابيين قد استولوا خلال هذه المدة على الحجاز وأخذوا يجاذبون عمال الدولة حبل السلطة في الأرجاء التي بين الحجاز والشام. وذكر بعض المؤرخين أنهم ارتكبوا في بلاد حوران سنة ١٢٢٥ أفعالا بربرية من سبي النساء وقتل الأطفال ونهب الأموال وإحراق المنازل والغلال حتى قيل: إنهم أتلّفوا نحو ثلاثة آلاف ألف درهم وفي تاريخ نجد ١٢٢٥ أن سعودا اجتاز بالقرى التي حول المزيريب وبصرى فنهبت الجموع ما وجدوا فيها من المتاع وشعلوا فيها النيران ثم رجع إلى وطنه ومعه غنائم كثيرة من الخيل والمتاع والأثاث والطعام وقتل من أهل الشام عدة. وساق والي دمشق يوسف باشا حملة على مصطفى بربر متسلم طرابلس واستنجد بالأمير بشير الشهابي حاكم لبنان فلم ينجده معتذرا بفتن النصيرية والإسماعيلية وأن الجند اللبناني مضطر إلى أن يرابط الجبل، فنال والي دمشق من متغلب طرابلس بالإجاعة وطول الحصار.

فتنة كنج يوسف باشا

صدر الأمر السلطاني في سنة ١٢٢٥ إلى سليمان باشا والي صيدا أن يقتل والي دمشق كنج يوسف باشا ويصادر أمواله. لأن يوسف باشا عجز عن سوق قوة لقتال ابن سعود ورأى كما قال جودت، اشتغال الدولة بمشاكلها الداخلية والخارجية فرصة لادخار المال، وأكثر من الاعتداء

على الأهلين وظلمهم، واختلس زيادة على هذا أموالا كثيرة من مرتبات الحج. ومما قاله السلطان لوالي صيدا في أمره الصادر بهذا الشأن: إني آمل منك صداقة وحسن خدمة لأنك تربية الغازي الجزار أحمد باشا حتى لا يقال: إن هذا راح ولم يخلف إنسانا!. ومعنى ذلك أن الدولة كانت راضية عن الجزار إذا ذكرته تذكره بأنه مثال رجالها الأماناء، وما ذلك إلا لأنه كان يؤدي لها الخراج في الجملة ويقاقل أعداءها ويرشي جماعة الأستانة بالمال على الدوام. أما سوء سيرته في الرعية وظلمهم وتقتيلهم فهذا لا ينقص بزعمها قدر الرجال، بل يجب على العمال أن يتقبلوا مثاله.

ولما جاء سليمان باشا في جند من الدرروز وغيرهم لأخذ دمشق من كنج يوسف باشا تعصب الدمشقيون لوالدهم القديم، ووقع القتال في أرض الجديدة وداريا، فانهزم الدمشقيون وظفر العسكر اللبناني والعكاوي وقتل كثير من الدمشقيين. وفي هذه الواقعة يقول المعلم نقولا الترك في مدح الأمير بشير:

وخاض غمار الحرب تحمل خلفه	ثلاثة آلاف تصول وتخطر
فلاقته فرسان المنايا مغيرة	تنادي على الباغين: الله أكبر
وثار الوغى والسيف قد قارع القنا	وغطى الفريقين الغبار المكدر
فولى على أعقابه كل ظالم	وفي سهل داريا الأعادي تقهقروا
وكم من سراياهم ترامت جماجم	كأوراق أشجار على الأرض تشر

وكان والي دمشق القديم قد جمع أمواله فبلغت كما قيل اثني عشر صندوقا من الذهب وعشرة أحمال من الفضة، فتعرض بعض الجند لجماعته أثناء خروجهم ليلا من السراي، فأقلت هو ووقع المال في أيدي الجند والعامه، فتنقاسموه واغتنى أناس من هذه الغارة على أموال الوالي التي سببت نكبته، وجمعها من أموال الدولة ودماء الأمة، وتوجه يوسف

باشا كنج إلى مصر فتوسط له محمد علي الكبير بالعفو ثم بعثت الدولة بعض رجالها فضبطوا ما خلفه الوالي السابق من الأموال في دمشق بعد أن نهب ما نهب، فكانت نحو ثمانية آلاف كيس من صافي الصابون وبعض أشياء كان يتجر بها.

سليمان باشا وأمراء راشيا وكوائن حلب

وعدّ مشاققة من حسنات سليمان باشا ضمه إقليم البلان إلى ولاية دمشق بعد أن كان مستقلا تحت لواء أمراء راشيا الشهابيين قال: وذلك لأن حكام ذلك الإقليم مستبدون، وكانت الأهالي تقاسي عذابا وجورا لا يطاقان، والأمراء يدفعون عن الإقليم مالا معلوما لحفظ استقلالهم به وبراشيا معا، والحكومة مشطورة مع الأهالي إلى شطرين حزب يناصر الأمير فندي وآخر الأمير منصورا، وكان كل واحد منهما يراقب الآخر ويترصده الفرص ليفتك به، فيحتاج كل منهما بالطبع إلى عصابة ومال وحاشية. وقد أثنى مشاققة على سليمان باشا وقال: إنه خدم الدولة والرعية خمسة عشر عاما بالعدل والأمانة، وكان الأسف عليه عاما حتى شعرت الدولة بفقده ١٨١٩ م وقال: لما سلبت بلاد بشارة من أيدي مشايخها كثرت التعديات واضطرت حكومة صيدا إلى وضع عساكر كثيرة، فلما جاء سليمان باشا الكرجي واليا على عكا اقتصر على مائتي جندي من المشاة وخمسمائة فارس وأربعمائة خيال من الهوارة يتبعهم مشاة ضبطية في باب السراي وجماعة المدفعيين على أسوار المدينة وأقام في كل بلدة من المدفعيين والضابطة كفايتها.

وسليمان باشا من مماليك الجزائر اشترك مع سليم باشا في حرب الجزائر، ولما أفسد الجزائر هذا العسكر على باب عكا هرب سليم باشا. وسليمان باشا، إلا أن هذا عاد إلى مولاه تائبا فوجه عليه متسلمية صيدا.

وكان سليمان باشا هذا لا يسمع وشاية ويحمي من يعينهم من جماعته ولا يسمع فيهم كلاما، وإذا عين أحدهم لا يرفعه مهما وقعت عليه من الشكاوي، وإذا توفي أحد خدامه مسلما كان أو مسيحيا يضع ولده مكانه إن كان له ولد ويجري عليه رزقه وإن كان لا ولد له يدر راتبا على عياله، وكان يعطي كل واحد من خدام بابه على حسب حاله من القرش إلى العشرة قروش كل يوم، وهذا لأكبر ما يكون من أرباب الوظائف. قال العورا مدون وقائعه: وكان عنده لما مات ٢٢ دعبولة في كل دعبولة ألف كيس ريال فرنسا - كل ريال بأربعة قروش - عدا ما كان تحت صرافه حاييم وأخيه موسى وهو يربو على اثني عشر ألف كيس وعدا الديون التي للخرزينة على تجار عكا وبيروت وما عند حريمه من الجواهر والتحف وخلا ما عنده من الغلات والكراع.

هذا الرجل الذي خلف هذه الثروة وما ذلك بالأمر المستنكر على ولاية عصره، كان يتبجح بكلام العادلين والمصلحين مع أفراد من حاشيته ومن يغشون مجلسه، ليدل على حبه لإحقاق الحق وزهده في حطام الدنيا. شنشنة معروفة في بعض من يتولون الأمر يبرئون أنفسهم من حب الدنيا وهم سراق منظمون، ويستحلون في السر كل كبيرة وفي جهرهم أعفة أتقياء. هذا الرجل قال لوكيله وصرافه حاييم وكتابه حنا العورا يوم استولى على دمشق وخلصها من يوسف كنج باشا: أنا قضيت حياة رأيت فيها الحلو والمر، فإذا أردتم أن تخدموني بالصدقة فأنا أشترط عليكم أن لا تظلموا أحدا، فلا أريد الظلم ولا أذية أحد ولا خراب بيت أحد. ولا عيني بمال أحد، وأريد ما أمكن سد باب الظلم، وليس لي حاجة في غير لقمة خبز طيبة وحصان مليح وجوبق دخان والكسوة الاعتيادية وامرأة واحدة ولست آذن ولا أرخص لأحد منكم أن يجمع لي مال عباد الله بالظلم ولا بالخطف، ولا بالحيلة ولا بوجه من الوجوه، ولا أريد إلا أخذ

الأموال المرتبة بأمر السلطان فقط ولا أشكر من يسعى لي بجلب الأموال من غير حلها بل أغضب عليه، وهأنذا أشهد الله وملائكته ورسوله عليّ وعليكم بهذا جميعه، وأنا بريء الذمة من كل ما تفعلونه في هذه الدنيا وفي الآخرة، فهل تقبلون بشرطي هذا كي أسلمكم زمام أموري وأريح فكري، فأجابوه: نعم قبلنا وسمعنا وأطعنا فحيثنذا قال لهم: وأنا سلمتكم مصلحتي بتمامها تصرفوا بها بحسب صداقتكم، وقد توكلت على الله وهو نعم الوكيل. كلام أشبه بكلام عمر بن عبد العزيز لأناس من حاشيته من زهاد التابعين وتابعي التابعين! وفي سنة ١٢٢٦ حدثت فتنة بين الدروز القانطين في الجبل الأعلى من عمل حلب وبين أهالي تلك الأرجاء وجرت بينهم وقائع فاتفق جميع أهل تلك الأطراف فأرسلوا يستشفعون بالأمير بشير فكتب إلى حكام حلب، وأرسل مباشرين لإحضار الدروز من هناك وكانوا أربعمائة بيت وأعطاهم مائة ألف درهم لمعاشهم.

وكثير ما كان يجري الخلاف في دمشق بين آغا القلعة والوالي فيعتصم الآغا وجماعته في القلعة ويشرع بإطلاق الرصاص والبارود والمدافع على جماعة الوالي ويصيب الأهالي من ذلك خطوط جسيمة كما وقع سنة ١٢٢٧ فأخذ عسكر الوالي يحيط بالقلعة ويطلق من المآذن المجاورة النار عليها والجنود يطلقون النيران، ودام ضرب المدافع والحصار الشديد ليلا ونهارا بلا فتور، وقتل أناس خارج القلعة واحترقت بعض الأماكن، ثم وضع عسكر الوالي سلالم ودخلوا القلعة من سورها وجرت المذبحة بين المحاصرين والمحصورين ونهب عسكر الوالي القلعة، وكان من يذهب قتلا من الجند على نسبة من يقتل من الرعية. والقلاع آية البلاء على الرعية ولا يتنفع بها عند الاقتضاء إلا الوالي أو المتغلب انتفاعا موقتا.

ومن الولاة الذين ملئوا حلب وأرجاءها ظلما ابن جبار جلال الدين باشا ١٢٢٧ كان مثلا في المصادرات وقتل من يأبى إعطاء المال ولا يكاد يمضي يوم إلا ويقتل إنسانا وقد احتال على ثمانية عشر شخصا من رؤساء الإنكشارية في حلب وأهلكهم فسكنت الفتن قليلا وقطع من أوصال الإنكشارية وقبض على القياد بشدته وقلة ذمته في إهراق الدماء وروى في أعلام النبلاء أن ابن جبار هذا عين اثنين يتجسسان أخبار الناس الذين تجب مصادرتهم فكان يرسل اثنين حاملين بلطة يأتیان بمن يجب مصادرته، فيزج في الحبس ويوضع في رقبته سلسلة لها شوك، ثم يطالب بما قرر عليه وهو جرم أو جرمان، والجرم أربعون كيسا والكيس خمسمائة قرش، فمن لم يدفع الجرم في ثلاثة أيام يخنق ويرمى تجاه باب القلعة، وكلما خنقوا واحدا أطلقوا مدفعا فكان يعلم عدد المخنوقين في الليلة من عدد المدافع، وكان الوالي إذا أراد النزول إلى السوق أمر فزينت له الأسواق نهارا فينزل ومعه البلطجية والعساكر عن يمينه وشماله فيدور في الأسواق، ومتى أدار وجهه إلى رجل فإن البلطجية يأتون ويضربون رقبة صاحب ذلك الحانوت، يفعل ذلك بثلاثة أو أربعة أشخاص ثم يعود، ولما تكرر منه هذا العمل الفظيع سأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء وما ذنبهم فكان يقول: لا ذنب لهم غير أنني أقصد إرهاب الناس. وتعذيبه الناس وأخذهم بالتهمة الباطلة من المأثور عنه المشهور به.

وجاء بعده خورشيد باشا وكان يصلي ويصوم لكن أتباعه يفعلون كل كبيرة وهو عنهم ساكت، وحدث أن الأهالي هجموا على دار رئيس دائرته سليمان بك وقتلوه وحملوا سائر أتباعه بما عندهم من أدوات الفحش والخمر إلى القاضي فعد الوالي ذلك نشوزا على السلطنة من أهل حلب فاستدعى عسكريا فجاءته جملة مستكثرة منهم، فوقعت وقعة بين العسكري والعصاة في محلة قسطل الحرامي ١٢٣٥ فانكسر العصاة وهاجم

العسكر البلدة وأخذوا يطلقون المدافع على أسوارها فخربوا جانباً منها ودام الحصار ١١١ يوماً وجرى القتال داخل البلد في الشوارع والأسواق، وكان القتال سجالاتاً بينهم إلى أن فر العصاة من الأهالي ودخل الولاية فيمن معهم من العسكر واحتلوا البلدة وقتلوا سبعة من كبار العصاة وأرسلوا براءوسهم إلى الأستانة. وقد قال الأهالي: إنهم ثاروا لشدة ما كانوا يلقونه من العنف وما كانوا ينوءون تحته من ضريبة الدور التي ضربت عليهم في سنة قحط وغلاء، وقد قتل بالطبع من الثائرين والأهالي والجند مئات.

تولى دمشق سنة ١٢٣٢ صالح الكوسج باشا وكان عادلاً حليماً فخماً وراقت الحال في أيامه ولم يحدث إلا نشوز عرب فليحان فأرسل عليهم جنداً فتحصنوا في اللجاة فقتلهم العرب ولم يسلم من الجند إلا القليل، وبعد سنتين تولى دمشق سليمان باشا وكان عادلاً إلا أنه محب للمال. وذكر جودت أن جماعة من الحشاشين والأشقياء ١٢٣٥ أخلوا بالأمن في حلب حتى كان الولاية يضطرون أن ينزلوا خارج البلد في مكان اسمه الشيخ بكير وأنه لم يمض على الثمانية عشرة شقياً الذين كان قتلهم بالخدعة جلال الدين باشا جبار واليه، حتى عدا الأشقياء فكثروا وأرادوا القيام بثورة، فتدارك الوالي الأمر باستدعاء الجنود الكثيرة، وحسم هذه النازلة. قال بعد أن ذكر أربعة أبرياء قتلوا في حلب بدلاً من أربعة مجرمين بواسطة أحد الأعيان: كان على ذلك العهد بين الأعيان كثير من الأردياء الأشرار، وهذه الحالة لم تكن خاصة بالأستانة ولا بالولايات، وكان قتل الإنسان في سهولته كتقطيع لحم الدجاج، حتى حدث مرة أن الأراجيف كثرت في الأستانة وبيننا كان مجلس الوكلاء ينظر في طريقة لحسم مادتها قال حالت أفندي: إن أحسن طريقة أن يقطع رأس الحلاق المقيم في أوقجيلر باشي وبذلك يحدث للناس خوف ودهشة وتقطع مادة

الأراجيف، فقال له أحد الحضور: عفوا إن هذا حلاقي فقال حالت أفندي: ليس هذا الذي أردت أن أضرب عنقه بل الحلاق الذي يسكن في الطرف الآخر وبذلك يحصل المقصود. قال: وبالجمله فقد كثر في تلك الأيام في الأستانة وخارجها من اسودت قلوبهم وقست أفئدتهم من الناس، وكانت الإدارة من كل وجه مختلفة بحيث لا يتيسر وصفها ولم يبق من وسيلة إلا تجديد الأصول وإصلاح أمور الدولة وتنظيمها، وقد نال هذا الشرف والي مصر محمد علي باشا والفضل للمتقدم. اه وهذا كلام مؤرخ رسمي يكتب للسلطنة، والحقيقة أن الحالة كانت أسوأ مما وصفها به.

وقعة المزة واستلام الدولة لوالي عكا

تولى دمشق سنة ١٢٣٥ درويش باشا، وفي أيامه اعتدى جماعته على مزارع ابن شهاب وابن جنبلاط في البقاع فاضطر والي الجبل إلى إرسال جند لمحاربه، وأرسل والي عكا جندا ووقع القتال فانتصر والي الجبل على والي دمشق، وبعثت الدولة والي حلب للنظر في هذه الفتنة بين الولاية، فرأى أن السبب في ذلك عبد الله باشا والي عكا، فحاصره والي حلب في عكا على غير طائل، ثم عزل درويش باشا عن إيالتي دمشق وصيدا وعفي عن عبد الله باشا، وهلك جمهور من الجند والناس في هذه الفتن التي كان منشؤها فيما قيل دسيسة من بعض الإسرائيليين هلك أحد أنسبائهم وتقربوا من درويش باشا فأثروا فيه. وذكر الشهابي في هذه الوقعة المعروفة بوقعة المزة لأن هذه القرية حرقت فيها، أن عبد الله باشا استمال بعض مشايخ جبل نابلس ووقعت الفتنة بين أهالي ذاك الإقليم فانقسموا فنتين ووقع القتال بينهم، وقالوا: إن سبب هذه الفتنة أن درويش باشا كان يريد تسلم عكا من عبد الله باشا بأمر الدولة فتشيع الأمير بشير الشهابي لوالي عكا، وسار في عسكره من المشاة والفرسان من أهل

الشوف والمناصف والمتن، وعسكر عبد الله باشا في الدالاتية والهوارية، وجعلوا مصافهم من كوكب إلى المعظمية من إقليم البلان وخرج درويش باشا إلى المزة فأقبل الأمير بشير، فلما علم عسكر درويش باشا بقدومه تحصنوا للحصار، وانتشب القتال بين الطرفين وطلقت عساكر دمشق المدافع والزبركات أي المدافع الصغيرة، فهجم الأمير بعسكره هجمة واحدة وهدم أسوار البلدة، وكانت مبنية باللبن وامتلكها، ففرت عساكر دمشق وقد قتل منهم نحو مائتين وخمسين رجلا وأخذوا منهم خمسمائة أسير، وغنم عسكر الأمير خياما وذخائر وخيلا وسلاحا، ورجع إلى المعظمية وبلغت أسرى عسكر دمشق من أهلها ٣٧٤ رجلا عدا من قطعوا رءوسهم. ومضت عدة أيام وفي نهر بردى تطفو الغرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم ألف رجل ومائتي رجل بين قتيل وجريح، وقتل من عسكر عكا نحو سبعين رجلا. وانتشب القتال بين الأمير خليل بن الأمير بشير وبين فيزو باشا أحد أتباع والي دمشق وهو قادم من نابلس في قرية مرجانة فقبض عسكر عبد الله باشا على مائة وخمسين أسيرا وقطعوا خمسة وعشرين رأسا وانهزم فيزو باشا إلى دمشق.

وأرادت الدولة أن تضرب على يد عبد الله باشا ١٢٣٧ والي عكا فأمدت والي دمشق بواليي حلب وأذنة ليتعاونوا على ضربه وقد تحصن فيها بألفي جندي، فحاصره الولاية المذكورون تسعة أشهر فلم يستطيعوا الاستيلاء على عكا مع أنهم كانوا في ستة عشر ألف جندي. ولما عجزت الدولة عن أخذ هذا الثغر من عبد الله باشا وأصبح في يده معظم القطر الشامي حقيقة رتبت عليه خمسة وعشرين ألف كيس وهي تساوي نحو نصف مليون ليرة، وذلك بدل نفقات عسكرها في حصار عكا، وكان عبد الله باشا يوقع كتاباته هكذا: «أمير الحاج السيد عبد الله والي الشام وصيدا

وطرابلس ومنتصرف ألوية غزة ويافا ونابلس وسنجاك القدس الشريف حالاً».

سياسة الأمير بشير في لبنان وتقاتل الولاة وارتابك الدولة

تولى دمشق مصطفى باشا ١٢٣٧ وفي أيامه حدثت فتنة بين الأمير بشير وابن جنبلاط وعلي العماد كتبت النصره فيها للأمير، وهرب المشايخ المذكورون إلى حوران فأمسكوا وقتلوا، واضطر الأمير بشير الشهابي بعد ذلك إلى التغيب في دمشق وحوران، ثم عاد بعد مدة إلى لبنان وتسلم زمام الأمر وطلب الأموال المتأخرة من اللبنانيين فثاروا عليه في اثني عشر ألف فارس وقيل في ثلاثة عشر ألف مقاتل وليس معه فيما قيل سوى ثلاثمائة. فقتل منهم على قلة عديده وأخضعهم لسلطانه، وعاونه الشيخ بشير جنبلاط على كبح جماحهم وكذلك والي عكا أرسل إليه عساكر الأرنؤد والهواره والمغاربه والأكراد فنشب القتال بين الفريقين فقتل من جماعة الأمير بشير ١٥ رجلا وأحضروا ٢٩ رأسا من رءوس محاربيهم. ثم قلب الأمير الشهابي ظهر المعجن للشيخ جنبلاط وسعى بقتله، كما قتل أناسا من أهله وحاشيته وسمل عيونهم ليأمن شرهم بزعمه، وذلك لأن ابن جنبلاط قويت شوكته وأثرى وكثر مشايعوه، فما كان من أمير الجبل إلا أن سعى بإهلاكه وألقى الفتنة بين الحزب اليزبكي والجنبلاطي ليخلو له الجوّ وسلم معظم لبنان لأناس من مشايخ الموارنة يحكمونه ويأتونه بالجزية والخراج ليدفع هو المقرر عليه لوالي صيدا أو عكا، ويأمن جانب الدولة فتصفو الولاية له. وكان من سياسته أن يظهر صاحب الظهور والقوة شأن الأمراء اللبنانيين في معظم أدوار تاريخهم.

وكثر الخلاف بين والي طرابلس ووالي دمشق ووالي صيدا ووالي عكا، والناس يقتلون بسبب هذا الاختلاف بينهم، وحاكم دمشق يحاصر حاكم عكا، والدولة ترضى عن هذا وتغضب على ذلك، وتسلب ولاية زيد لتعطيها لعمر، وتلاحظ في ذلك التوازن بين القوات، وتتحاشى رجوع الذين يعصون أمرها من الولاة. وأعقل الولاة وأدهامهم من كانت تدوم ولايته سنتين وكانت الوظائف الحسائية في هذا الدور بيد الإسرائيليين والكتابية بيد المسيحيين، وكان الولاة يصادرون بعض الإسرائيليين ويحبسونهم وربما يقتلونهم لاستحصال المال فيحتال هؤلاء لتمشية أمورهم، وحدث أن معظم الحامية والموظفين في دمشق كانوا مرة من أهل بغداد والموصل وكركوك فغضب الوالي عليهم فأمر بترحيلهم فهلك بعضهم في الطرق.

كانت الشام تتخبط بأيدي الولاة وأرباب الإقطاعات، والدولة غير مستريحة في داخلتها وخارجيتها، فاستقلت اليونان ١٨٣٠ م بعد حرب هائلة فقدت فيها الدولة أسطولها وذهب قسم من الأسطول المصري، وكان الأسطول اليوناني ضرب بيروت ١٢٤١ ١٨٢٥، وتوسعت اختصاصات إمارتي الأفلاق والبغدان - رومانيا - حتى بلغت الاستقلال أو كادت، وفتحت روسيا لها طريق البحر الأسود، وما زالت حال الدولة على ذلك حتى نشأت ثورة الإنكشارية في الأستانة ١٢٤٢ وكانت الدولة أخذت تنظم جندا جديدا على الأصول الحديثة، فاستراحت بعض الشيء بعد إهلاك الإنكشارية، وكذلك حال الأمة المسكينة التي قاست الأهوال من اعتداءاتهم، وكان الفضل الأكبر في ذلك لمصلح الدولة السلطان محمود الثاني الذي أظهر من الثبات وقوة الإرادة في هذا الشأن ما لم يعرف به أجداده الذين قتلوا بأيدي الإنكشارية، واستناموا لما يأمر به مخافة أن تزهد أرواحهم. وقضى أيضا على أهل الطريقة البكداشية في

الأستانة وما إليها مما ذكره له التاريخ بالإعجاب، وعاب بعضهم عليه شدته وأعجب بأعماله معاصروه من الأعاظم. فقد قال سفير روسيا في الأستانة بعد سنتين من قرض جيش الإنكشارية: إن السلطان محمودا بقضائه على هذا الجند المختل الذي تصعب إدارته قد ظفر بنور من النبوغ بمثله تنجو الممالك من المهالك. وقال دي لاجونكيير: إذا كان السلطان محمود أقل سعادة من بطرس الأكبر في إرادة التجدد فإن منشأ ذلك بأن بطرس الأكبر قد وجد أمة لا تزال على الفطرة أي جديدة، وكان من الأسهل أن تنظم وتصاغ، وعلى العكس في محمود فإنه صادفته عقبات من الأوضاع القديمة، أوضاع نشأت وكبرت مع المملكة وكان منها فيما مضى قوتها وقدرتها، أوضاع وضعها السيف وأيدها الظفر وقدسها الدين.

تولى دمشق صالح باشا ثلاث سنين وثلاث مرات كل مرة سنة وأظهر شدة زائدة ثم تولاها ولي الدين باشا ١٢٤٢ وكان أحقق مغفلا مهملا ثم عزل ونصب عبد الرؤوف باشا ١٢٤٣ وكان عادلا لطيفا وطمعت الشام به لعدله وفي ١٢٤٣ أحدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الأمير أهل القرى اللبنانيين أن يرجعوا بمالهم إلى إقليمهم فرجعوا فحرب البقاع فارتضى وزير دمشق حينئذ بأخذ عشرين ألف قرش من تلك القرى وكتب إلى الأمير أنه رتب العشرين ألف قرش عوضا عن المال الميري والقسم أي الثلث.

محاولة الدولة قتل النصارى وفتنة نابلس

وأرادت الدولة أن تنتقم من نصارى الشام بل من النصارى في أنحاء المملكة لثورة اليونان عليها ومطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة ١٢٤٤ وجزائر البحر المتوسط فأمرت والي دمشق أن يقتل المفسدين من كبراء

طائفة الروم فعقد مجلسا من أعيان دمشق وتلا أمر الأستانة على سامعهم، فكان جوابهم أنه لا يوجد من النصارى عندنا المفسدون وجميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا تجوز أذيتهم. لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وأن الرسول عليه السلام أوصى بالذميين وقال: ((من آذى ذميا كنت خصيما يوم القيامة)). ونحن لا نقدر أن نتحمل هذه التبعة، وكتبوا محضرا للدولة بحسن سلوك نصارى الإيالة وطاعتهم ودفعتهم المرتبات الأميرية وأنهم يستحقون حسن الرعاية والمرحمة من السلطنة السنية.

ولعمري أي علاقة للثائرين في جزائر البحر والمورة مع الأمنين من الرعايا في الشام، فقد أبان عقلاء دمشق إذ ذاك عن رأي شديد، ولكن لا ندري إذا كان رأيهم راق لدى ولاة الأمر في الأستانة. وأي أمر جائر أكثر من هذا كأن النزاع إلى الاستقلال من اليونان كانوا يصدرون عن آراء مسيحيي الشام أو آسيا الصغرى، أو أن هؤلاء يحثونهم على نزع أيديهم من أيدي الدولة، ولو استطاع المسلمون أنفسهم في ذلك الوقت أن يستقلوا عن الدولة لينجوا من خلل إدارتها لما تأخروا عن ذلك ساعة.

وفي سنة ١٢٤٦ ١٨٢٩ طلب والي عكا من الأمير بشير الشهابي أن يفتح قلعة صانور وكان أهل نابلس عصوا عليه وتحصنوا في قلعة صفد وأعجزوه فلم يقدر عليهم لأن معظم الأهالي انضموا إلى الثائرين، وكانت صانور منذ القرن الماضي تشغل بال رجال الدولة في عكا وصيدا والقدس، فنشبت بينه وبينهم عدة وقائع وبعد حصار ثلاثة أشهر وتخريب عدة قرى، أمر الوزير بهدم القلعة ودكها إلى الأساس ودك مغائرها وهدم أبارها، وسبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها والي دمشق على الثائرين، ولما عجز عن جمعها أحيلت إلى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع ألف كيس وأمر بجمعها من أهل نابلس، وكان من زعماء النابلسيين إذ ذاك

أسعد بك طوقان والشيخ القاسم الأحمد، وفشل النابلسيون ولم يبق في القلعة عند تسليمها سوى ٣٦٧ وكان فيها أكثر من ألف ومائتي نسمة قتل بعضهم وضرب الآخرون وذكر مشاققة أن سبب عصيان نابلس سلخ عبد الله باشا لها بأمر الدولة عن إيالة دمشق، لأن والي دمشق ادعى أن المطلوب منها ستمائة كيس لا تحصل إلا بسوق حملة تستغرق المبلغ المتحصل منهم، فتعهد عبد الله باشا بأن تضم إليه ويدفع ألفي كيس عنها، وأن عسكر أمير الجبل الذي جاء نجدة لعبد الله باشا كان نحو خمسة آلاف رجل، وأن النابلسيين نزلوا على حكم الأمير بشير الشهابي فعفا عنهم جميعا وهدم القلعة وحصل الأموال الأميرية بعد مناوشات طفيفة.

مقتل سليم باشا والي دمشق

انقضى النصف الأول من هذا القرن أو كاد والقطر نهب أيدي الطامعين من الولاة والمتسلمين، يسيئون في الرعية الاستعمال، ويعبثون بما خولتهم دار الملك من السلطة فيمثلون أعظم مظهر من مظاهر الحكم الاستبدادي الفردي الجاهل. ولم يكن يخطر في بال الدولة أن رعاياها يقوون على الانتقام من أعظم عمالها، وهم الموصوفون في معظم أدوارهم بالطاعة للملوك والزعماء والرضا بما تقضي به الأقدار، ولو صحت عزيمة المظلومين مرة أو مرات أن يهلكوا من يحاول إهلاكهم وخراب أرضهم وديارهم، لما ساءت الحال، وبلغت الشام ما بلغته من الاختلال، نريد أن نقول: إن الرعايا طالت أيديهم فقتلوا واليا عظيما من ولاة السلطنة. ونعني به سليم باشا الصدر السابق مبيد جيش الإنكشارية.

نصبت الدولة هذا الشيخ واليا على حلب ثم على دمشق سنة ١٢٤٧، وكان ظاهره شجاعا مهيبا وباطنه جبانا وقد هم أن يغتال بعض أعيان المدينة فبدأ بمدينة حماة، وقتل بعضهم فأيقن القوم أن هذا القاتل لا

يصعب عليه أن يهلك أناسا في دمشق ليصفو للدولة الحال بزعمه، فلما جاء عاصمة الشام أراد أن يضع على كل سكرة أي عقار في دمشق مصريتين كما هو الحال في الأستانة فثارت العامة بإشارة الأعيان وكانوا عند المصائب الشديدة تتحد على الأغلب كلمتهم، اتقاء شر عظيم يقعون فيه، وكثيرا ما كانوا يدخلون الأوهام على الولاة؛ لئلا يشتطوا في مطالبهم وتكون المغانم مناصفة بين الأعيان المتغلبة والحاكم المنصوب، فضرب الوالي العامة من أبراج القلعة بالقنابل، حتى إذا ضاق عليه الخناق جاء في بعض رجاله إلى دار قرب باب البريد فتأثره العامة وهدموا على رأسه سقف المخدع وأحرقوه.

وذكر بعضهم أن هذا الوالي تحصن برجاله في جامع مغلق أولا والسكمان بالقلعة، فبدأ الحريق من باب الهواء وأخذ يمتد، فلما رأى ذلك داخله الوهم لقله رجاله وكثرة الدماشقة فتحصن بالقلعة، وأخذ يحرق دار الحكومة ليشغل الناس ويفوز بنفسه، وكان الحريق هائلا خرب كثيرا، ثم اعتمدوا على حصار القلعة وأخذ الوالي يطلق المدافع على البلد، وأقام الناس متاريس حول القلعة ثم في الحارات وحاصروا العسكر المرابط في جامع المعلق، وقتل في هذه المناوشات كثير من الأهالي وجماعة الوالي، وطال المطال وتألّب الناس على الوالي حتى إن والي عكا أخذ يقوي أهل دمشق عليه، ولما ضاق به الحصار خرج إلى بيت القاضي بجانب دار المشورة، فجاء سبعة رجال وكسروا الباب والنافذة عليه وألقوا النار بعد أن أخرجوا من عنده ابن أخيه والكيخية، ثم قطعوا أعناقهما افتراءً وعدوانا كما قال مدون هذه الواقعة إذ ليس لهما ذنب يوجب القتل حتى إن الباشا نفسه افتروا عليه لأنه لم يظهر منه أدنى أذى إليهم غير تمسكه بإتمام الأوامر التي بيده من الأستانة، وربما كان يضمم للأعيان شرا لا نعلمه وأما في الظاهر فليس لهم عذر سوى أنهم افتروا

عليه وعلى جماعته على نوع مستغرب مناف للشرائع كلها ثم أخذوه عريانا إلى القلعة، مع الاثنين خاصة بعد أن داروا براء وسهم ودفنوهم داخل القلعة وتولى الشربجي الداراني ورشيد نسيب الشوملي أمر البلد، وبات الناس يتوجسون خيفة من رجال الأستانة، ولو كان ما أتوه في حالة راحة الدولة لأرسلت عليهم جنودها يفعلون بالأبرياء والجناة الأفاعيل المنكرة، ولكن الدولة كانت تتوجس خيفة من محمد علي والي مصر وما بلغه من القوة بجنده وبحريته واستعداده، ولها مشاكل في أوروبا تخاف أن تتجزأ قوتها إذا أرادت تأديب الدمشقيين. ولذلك لم تحب أن تناقش الأهالي الحساب ولم تسؤها فجيعتها بشيخ هيم قاتل، والقاتل مبشر بالقتل، ومن عادة الدول على الأغلب أن تفتك بعد حين فيمن استعملته آلة للفتك، ولذلك نرى مؤرخي الترك قد نطقوا بلسان الحكومة ولم يحركوا ساكنا كأنهم رأوا لعمل الدمشقيين مبررا من حسن نيتهم.

وقال مشاققة: لما قتل الدمشقيون سليم باشا اجتمع أعيانهم ورتبوا حكومة مؤقتة وأخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم، فورد الخبر بخروج عساكر مصر لتأتي الشام فسكن روعهم بعض الشيء، ولما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر عما عمله أهالي دمشق وأرسلت واليا عليهم اسمه علي باشا. وأخذت الدولة تؤول عمل أهل دمشق وأصبحت كالمحامية عنهم تختلق لهم الأعذار عما بدر منهم لأن السياسة اضطرتها إلى ذلك. فقد جاء في تاريخ لظفي نقلا عن جريدة تقويم الوقائع الرسمية أن سليم باشا لم يعمل بحسب الوقت لما جاء دمشق، وقد عين الحاج علي باشا والي قره مان لاستئصال الفتنة التي كان شوبها يتراعى إلى المسامح، بيد أن سليم باشا قتل قبل وصول خلفه، وتبين أن للغرباء يدا في هذه الفتنة، وأن تأديب المشاغبين بسوق قوة على دمشق يضر بأهاليها!

وقال المؤرخ: إن سبب عصيان الدمشقيين أن سليم باشا مر بحماة عند شخوصه إلى دمشق وقتل بضعة رجال من عرب عنزة وقيد البرازي في القيود وأتى به معه إلى دمشق فدهش أهلها، وكان اقتراحه وضع ضريبة فأوقد جذوة الفتنة. وذكر أن الأهالي هجموا على السراي أولا وأغلقوا دكاكينهم وانتشرت الفوضى. وقد كتب السلطان على محضر قدمه بهذا الشأن عاطف بك ابن خليل شقيق سليم باشا قال فيه: قد يتبادر إلى الذهن أن لبعض الأطراف يدا في حادثة دمشق، ومن الجائز أن يكون ذلك بصنع والي صيدا لأن هؤلاء ليسوا على ثقة تامة من دولتنا العلية وهم ينفرون منها على الدوام، وعلى هذا فإن أمور إيالة الشام إذا دخلت في النظام على ما يجب يحدث ذلك ضررا لهم، وقد عرفوا هذا حق المعرفة، فيجوز أن يكونوا سبب هذه الفتنة لإيصال الحال إلى تلك الصورة.

وقد ظهر من الأوراق الرسمية الأخرى التي نشرها لطفي في تاريخه أن السلطان ذهب مذهبين في هذه الفتنة فكان يقول في بعض أوامره قبل مقتل سليم باشا القائم بتطبيق قانون رسوم الاحتساب سدا لنفقة الجند: إن أهالي دمشق وحواليها وإن كانت أرضهم مباركة، لا يستنكف أكثرهم عن عار ولا يعرفون الحياء، وظاهر أنهم أشرار وسيرون بحول الله وقوته من أسباب التأديب ما يقفون به عند حدهم. وقال في كتاب آخر: إن وقوع هذه الحادثة في دمشق ليست منبثقة من جسارة الأهالي فقط، بل نشأت بلا ريب من إغواء الأطراف وتحريكها. وذكر المؤرخ أن السبب في فتنة سليم باشا تحريك محمد علي والي مصر ليجعل مقدمة لدخوله الشام، وفي رواية أخرى أن والي عكا عبد الله باشا كان هو السبب في ذلك.

وقصارى القول أن سليم باشا مبيد جيش الإنكشارية الذي عجت طينته بالدماء فقتله أعيان دمشق مخافة أن يبطش بهم كما بطش في حماة، خافوه ووجدوا فرصة للنيل منه لما جاء يطبق قانون الاحتساب، فأثاروا الرأي العام عليه ففعلوا وربما كانوا يريدون الاكتفاء بتهديده ليحملوه على الهرب، ولكن الأمر خرج من أيديهم إلى أيدي العامة فقتلوه غير حاسبين للعاقبة حسابا، فكان قتله على غير رضا العقلاء من الأعيان، وكان هلاكه مخيفا لمن يأتي بعده من الولاة.

الحكم على الموقف السياسي في نصف قرن

ويجوز لنا بعد نقل حوادث نصف قرن أن نلخصها ونستنتج منها على الصورة التالية:

١- كان الظلم يقع على المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين على السواء، ولما كان المسلمون هم السواد الأعظم من السكان كان تأثير الظلم في مجموعهم أقل من تأثيره في مجموع الإسرائيليين مثلاً.

٢- أوغل أرباب الإقطاعات في الظلم فقلّم الجزار من أظافرهم ليستأثر وحده بالظلم والقتل، فحالفه التوفيق بطول المدة إلى الضرب على أيديهم بعض الشيء، فلما هلك عادت الحالة الأولى إلى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين.

٣- مرّت حملة نابليون بونابرت على جنوبي الشام كالسحابة، وكان من الجزار أن ضمّ قوى الأقاليم برأي انكلترا التي تولت حربه بحرا بأسطولها، وساعد أن حكومة الدير كتوار في باريز استدعت نابوليون فعاد أدراجه مسرعا لا يلوي على شيء كما رجع ريشاردس قلب الأسد ملك

انكثرتا في الحروب الصليبية بعد أن عقد مع صلاح الدين يوسف ميثاقاً أنقذ به الصليبيين ومحاربيهم من القتل والقتال.

٤-الظلم الواقع على النصرانية وإرادتهم على تغيير معتقداتهم واتخاذ مقتل رجل غريب يمتُّ بنسبة إلى دولة أجنبية قوية ذريعة إلى تخريب جبالهم وقتل زعمائهم بدون تحقيق، على حين كان زعماء الأرجاء الأخرى من القطر يفعلون فعلهم وزيادة، ولا من يردعهم أو يقوى على نزع سلطانهم وتخفيف وطأتهم، مثل محمد باشا أبو مرق الذي عجت الأرض إلى السماء في فلسطين من مظالمه حتى أخذ الناس يبيعون أولادهم كما تباع الجوارى والإماء فرارا من ظلمه وقياما بما يفرضه عليهم من المغارم.

٥-قيام مصطفى بربر متسلم طرابلس واستعانتته بكافل عكا على كافل دمشق وظلمه الرعية ومحاولة الدولة غير مرة أن تستريح من تسلطه فلم تستطع ذلك إلى أن أهلك حتف أنفه.

٦-انقضاء دولة بني العظم بهلاك عبد الله باشا آخر من ولي منهم سنة ١٢٢٣ ولم يبق بعده أحد من ذريتهم لتولي الأحكام.

٧-اشتغال الدولة بالغوائل التي أصابها ولا سيما استقلال اليونان ومحاولتها لما نال اليونان ما أرادوا أن تنتقم ممن يدينون بدينهم في الشام، فرد حزم الحازمين إرادة المختلين من ولاة الأمر الظالمين بحجة دينية أيضا.

٨-عدم توفيق سليم الثالث في تطبيق خطط الإصلاح وكذلك مصطفى الرابع حتى تولى السلطنة محمود الثاني فبدأ في إنفاذ إصلاحه بمقياس واسع، كان أوله مقتل جيش الإنكشارية في العاصمة والولايات،

فعدّ مصلح عصره الذي أدخل دولته في المدنية الغربية طوعا وكرها، وجعل لها مقاما بين الدول لم يكن لها من قبل على اتساع أقاليمها، وخروج أكثر القاصية من حكمها فتبين لها أن عظمة الممالك بحسن إرادتها وكثرة مدنيّتها لا بعظم رقعتها وخصب بقعتها، وأن دولة غناماها في عنفوانها وبذخها كما هي في ضعفها وشيخوختها، تُؤلّي رقاب الأمة ولو بالصورة الظاهرة، وجبوة خراجها ولو بالتغاضي عن بعضه للجباة لا للرعية لا تصلح ويصلح أهلها.